الحتمية والسنن الإلهية

عرض وتحليل

الدكتورة

فايقه محمد جاد زيدان

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

مقدمة

الحمد لله ربط الأسباب بالمسببات ربطا عاديا؛ وبين أن ذلك من السنن الإلهية؛ التى جرت بها القدرة الربانية؛ قال تعالى:﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١)، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعل سننه المطردة يأتى عليها أمر الكون؛ قال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (٢)، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله؛ وصفيه من خلقه وحبيبه؛ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة؛ فكشف الله به الغمة؛ اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الله تعالى خلق الكون من خلال سنن قائمة؛ لا يقع فيها شئ من التبديل، أو التغيير بإرادة الخلق، أو قدراتهم، وإنما يجئ التبديل والتغيير طبقا لسنن إلهية استثنائية؛ تجرى فيها المعجزات، وخوارق العادات الشرعية من ناحية أنها أفعال إلهية؛ أى أنها أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالى.

غير أن البادى من ملامح الكون الذى نعلم عنه هو وقوع شئ من الحتمية المفروضة فى هذه المخلوقات طبقا لأحكام إلهية؛ جاءت الإشارة إليها فيما يتعلق بالعالم المشاهد، أو الغائب يدل عليه قوله تعالى:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾(٣).

ولما كان كثير من الدارسين ينظرون لكل من الحتمية، والسنن الإلهية؛ نظرة متباينة؛ قد رأيت بحث هذه المسألة؛ لمعرفة العلاقة بينهما؛ إذ الوصول إلى

(١) سورة الأحزاب من الآية ٦٢.
(٢) سورة القمر الآيتان ٤٩، ٥٠.
(٣) سورة مريم الآية ٧١.

الخير من شريعة الإسلام، وبحث المصالح الشرعية سنة إلهية؛ من هنا كان اهتمامى بدراسة ذلك الموضوع تحت عنوان:" الحتمية والسنن الإلهية عرض وتحليل".

ويتكون هذا البحث من ثلاثة فصول تسبقها مقدمة؛ تتبعها خاتمة، بجانب أهم المصادر، وفهرس الموضوعات؛ طبقا لما هو قائم فى الدراسات العلمية.

ومن المؤكد أن دورى سيقف بين الباحث عن الأجر، أو الأجرين؛ طبقا لما وردت به الإشارة فى الحديث الشريف من أن المجتهد إن أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران والحمد لله رب العالمين [1]

(١) فعن عَمْرِو بن الْعَاصِ أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ – يقول:" إذا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ،وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ" الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٧٦١ بَابُ أَجْرِ الْحَاكِمِ إذا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ أو أَخْطَأَ ح٦٩١٩

الفصل الأول
الحتمية بين الدين والعلم

أولا: الحتمية:

وردت كلمة الحتمية، وكذلك كلمة السنن فى كل من لغة العرب بجانب مصادر الإسلام الأساسية وأعنى بها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة؛ لقوله(ﷺ):"تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه -(ﷺ)- [(١)] وسيكون تناولى فى المسالة من خلال ما يلى:-

أ- مفهوم الحتمية فى اللغة:

وردت مادة الكلمة " ح – ت – م " فى القرآن الكريم من خلال قوله تعالى:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [(٢)]، كما وردت مادة الكلمة فى لغة العرب على معان منها:-

١- القضاء والحكم:

قالت العرب: هذا الأمر صار حتما، يجب تنفيذه؛ يريدون أن دراسته من الناحية الواقعية باتت محل اتفاق، ومن الناحية العملية صارت محل تنفيذ[(٣)]، ومن ثم تكون الحتمية هى الأمر الذى قضى فيه وصار تنفيذه واجبا.

---

(١) الإمام الحاكم –المستدرك على الصحيحين ج١/ص١٧١ح ٣١٨، ط دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ط أولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
(٢) سورة مريم الآيتان ٧١،٧٢.
(٣) راجع للعلامة الزمخشرى – أساس البلاغة باب الحاء فصل التاء وما يثالثها ص ١٨٥، والعلامة المناوي – مهمات التعاريف، ج١/ص٢٤٣ دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق – ١٤١٠،ط أولى، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.

٢- الحكم القابل للتفاوت:-

تقول العرب؛ فلان احكم هذا الأمر؛ فصار حتما عليه، يريدون انه الذى أوجبه على نفسه، ولم يوجبه عليه غيره[١]، وبالتالى فكل إنسان احكم أمرا صار حتما عليه الالتزام به، أما من لم يحكمه فهو أمر إختيارى بالنسبة له من ناحية التطبيق بناء على قاعدة أصولية هى أن صاحب الرأى الصحيح له أن يلتزم به، لا أن يلزم غيره.

٣- ما لا يمكن إسقاطه:-

تقول العرب هذا الأمر تحتم، بمعنى أن وجوبه صار ثابتا فى مواجهة الجميع، لا يمكن لأحد أن يسقطه من حسبانه [٢]؛ وكل من احكم أمرا ولم يتمكن أحد من إسقاطه؛ فانه يكون متحتم الوفاء به.

٤ – الشئ الخالص:

ذكرت مصادر العربية؛ أن الحتم هو الشئ الذى لا يقع فيه شئ شبهة؛ نظرا لنقائه وسلامة ما فيه، ولذا يقولون عن الأخ: هذا هو الحتم يريدون أن كل شي إن أمكن الشك فيه إلا الأخ، فإن الاعتراف به
حتمى، وإسقاطه عمل غير مقبول [٣].

٥- الشئ الثابت:

ذكرت مصادر العربية أن هذا القول حتمى؛ معناه أنه ثابت ثبوتا لا يستطيع العقل الصحيح أن ينقضه، أو يجادل فيه، أو يطعن عليه [٤].

---

(١)الرازي –مختار الصحاح ج١/ص٥٢ ط – بيروت – ١٤١٥ – ١٩٩٥، تحقيق: محمود خاطر،وللعلامة لويس المعلوف – قطر المحيط- باب الحاء – فصل التاء وما يناسبها ص ١٩٣.
(٢) العلامة ابن منظور – لسان العرب باب الحاء ج ١٢ ص ١١٤دارصادر ط أولى.
(٣)الفيروزآبادي- القاموس المحيط ج١/ص١٤٠٩ ط مؤسسة الرسالة – بيروت،وراجع للعلامة ابن فارس – معجم مقايس اللغة باب الحاء ص ١٥٣، ١٥٤.
(٤) راجع للأستاذ إبراهيم مصطفى وآخرين المعجم الوسيط ج١/ص١٥٥ دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية،راجع المعجم الوجيز باب الحاء ص ١٣٤.

مما سبق بيانه تبين أن مادة الكلمة (ح– ت– م) معناها فى لغة العرب القضاء الصادر، والحكم النافذ الخالى من أوجه القصور الواجب إتباعه، ولا يمكن للعقل، أن يجادل فيه؛ نظرا لأنه بالغ مبلغ البديهيات لارتباطه بمقدماته الصحيحة؛ ونتائجه السليمة(١).

ب – الحتمية فى الاصطلاح:

الاصطلاح لدى العلماء هو" اتفاق طائفة بعينها، أو جماعة بذاتها؛ فى علم من العلوم؛ أو فن من الفنون على استخدام لفظ بعينه فى معنى بذاته (٢)، وبناء عليه صارت الاصطلاحات بمثابة قواعد تعريفية لا يتنازع فيها أصحابها، حتى قيل لا مشاحة فى الاصطلاح؛ يريدون أن كل جماعة تملك وضع مصطلحات لذاتها؛ نظرا لاتفاقهم بشأنها؛ وتمضى تلك الاصطلاحات حتى تكون بمثابة القواعد العامة فى هذا العلم، أو ذاك.

ومن الملاحظ أن كلمة الحتمية فى الاصطلاح؛ ترد على معان كثيرة طبقا لأصحاب الفن، أو العلم الذى تورد فيه من ذلك:

١– ما ذهب إليه أصحاب الحتمية العلمية؛ حين قالوا " أنها ارتباط النتائج بالمقدمات، وارتباط الأسباب بالمسببات؛ على ناحية عقلية ضرورية فى العلوم الفيزيائية (٣).

ولا شك أن ارتباط النتائج بالمقدمات – الأسباب بالمسببات – على هذا النحو الذى يعتقده الفيزيائيون أمرا حتميا، ومن ثم فليس لديهم استعداد للخروج عن هذا التعريف أو فحواه.

---

(١) هذا التعريف تم اقتباسه من المعانى اللغوية، ولذا فهو تعريف جاء على ناحية لغوية؛ حسب توفيق الله تعالى؛ فمن وفق إلى غير ذلك فليحمد الله تعالى، لأن ذلك من أقسامه جل علاه.

(٢) السيد الشريف الجرجانى– التعريفات، باب الألف ص٤٤ – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٥، ط أولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

.(٣) هانز ريشنباخ– نشأة الفلسفة العلمية،ص ١١٤ ترجمة الدكتور: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٧٩ م.

٢- أن الحتمية هى أن كل حدث يقع؛ من حيث المبدأ؛ يكون داخلا فى نسق الأسباب الكونية دخولا ثابتا [١]، ومن ثم فان وقوع هذا أو ذاك الحدث من حيث المبدأ؛ يخول له البقاء فى هذا الطريق دون أن يحدث عليه شئ من تعديل.

٣- ويؤكد هذا المعنى على أن الحتمية فى المفهوم العلمى يمكن تعريفها؛ بأنها "ما يقوم على مبدءين مختلفين من ناحية المقدمات، ولكنهما ينفصلان من ناحية المترتب عليهما؛ نظرا لترتب أحدهما على الأخر ترتبا حتميا [٢].

ولا يخفى أن هذا المعنى يقوم على جملة من الإحداثيات الفيزيائية؛ التى تعكسها العلاقات الرياضية وتبرزها صورة ما هو قائم من علاقات سواء فى علم الحساب، أو غيره، فنقول "إذا كان كذا قد حدث فإنه يكون كذا دائما، ومن هنا قالوا:إن الحتمية مبدأ علمى؛ ومحورها يرتبط بفكرة الضرورة المشروطة؛ التى يمكن تخيلها.

٤- يعتقد كثير من الدارسين فى العلوم الفيزيائية وغيرها أن الحتمية " هى مبدأ ثابت فى الكائنات الحية، وفى أجسام الجماد على حد سواء، وهى تحدد شروط وجود كل ظاهرة تحديدا مطلقا " [٣].

مما سبق بيانه أمكن القول بأن الحتمية فى العلوم الفيزيائية والرياضية تقترب صورتها نظرا لارتباطها ببعضها مقدمات وأسبابا على ناحية واحدة، وذلك مما لا يفتح أى باب للحديث عن خوارق عادات، ومن هنا كانت المأساة التى يقع فيها الحتميون؛ عندما اعتبروا أن النتائج تترتب على الأسباب دون حاجة إلى قدرة إلهية فخرجوا بذلك عن الإطار العلمى؛ الذى يحترم الأصول الثابتة؛ إلى الإطار الاجتماعى الذى تجى معه عمليات التعديل والتغير؛ طبقا لما هو قائم فى العلم؛ وتنص عليه أقوالهم أيضا؛ من أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

ولا يخفى أن هذه الحتمية قد نظر إليها مفكرو المسلمين القدماء نظرة موضوعية، وأبانوا أوجه القصور فى هذا الجانب من الناحية العملية، يؤكد هذا

(١) الدكتور يمنى طريف الخولى – العلم والاغتراب والحرية ص ٥٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ م.
(٢) راجع لبول موى: المنطق وفلسفة العلوم ص ٦١، ترجمة الدكتور: فؤاد زكريا.
(٣) الدكتور: مراد وهبه- المعجم الفلسفى ص ١٧٣، ط دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

الاتجاه الإمام الغزالى الذى قال فى إبطال هذا الرأى: "إن الإقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا، وما يعتقد مسببا ليس أمرا ضروريا عندنا "[(١)].

ولا يخفى أن الإمام الغزالى كان يريد إبطال فكرة؛ أن تكون الحتمية قاضية بلغتها العلمية على أداء القدرة الإلهية، بدليل أن الإمام الغزالى نفسه ضرب أمثلة بما ذكره، ثم بين أوجه فسادها [(٢)]، يقول الإمام الغزالى: إن احتراق القطن بالنار لا يفيد الإقتران بين السبب والمسبب، لأن فاعل الاحتراق، إنما يكون بخلق السواد فى القطن، والتفرق فى أجزائه، وجعله حراقا، ولا شك أن الذى يفعل ذلك إنما هو الله عز وجل نظرا لكونه الخالق القادر المريد، أما النار فما هى فى الحقيقة إلا جماد لا يملك قدرة ولا إرادة، ولا علما، ولا حياة، وبالتالى ففعلها منعدم من حيث الحقيقة، ومردود إلى الله تعالى من ناحية الخلق، والإيجاد [(٣)].

من الملاحظ أن الحتمية لدى هؤلاء ترتبط فيها الضرورة المشروطة؛ والتأكيد على وجود علاقة ثلاثية الأبعاد، ويعنون بها العلم، وتقرير الحتمية؛ وارتباط الأسباب ببعضها، وهو الذى نبه إليه " بول موى حين قال: أنا اعتقد أن الحتمية مبدأ ثابت فى الكائنات الحية، وفى أجسام الجماد على حد سواء، وأنها تحدد شروط وجود كل ظاهرة تحديدا علميا مطلقا بحيث لا تكون بحاجة إلى شئ وراءه [(٤)].

ج – تقسيمات الحتمية بالاعتبارات المختلفة:

من المؤكد أن العطاء اللغوى قدم للفظ الحتمية جملة معان، وهذا ما يترتب عليه تقسيم الحتمية على النواحى المختلفة؛ أعرضها على النحو التالى:–

(١) الإمام أبو حامد الغزالى – تهافت الفلاسفة ص ٢٣٩ تحقيق الدكتور سليمان دنيا –دار المعارف ط الثامنة.
(٢) بيان وجه فساد الفكرة يقضى على قبول النتائج والمترتب عليها، والقاعدة أنه إذا تطرق للدليل شيء من الاحتمال سقط به كل الاستدلال.
(٣) راجع للإمام الغزالى – تهافت الفلاسفة ص ٢٢٨، حيث بين ذلك على صور عديدة، وكان ذلك فاتحة خير لمن جاء بعده وتوسع فيه.
(٤) بول موى – المنطق وفلسفة العلوم ص ٦٤ وهو بهذا يؤكد الفكرة القائمة فى ذهنه من أن الحتمية تعكس طبيعة العلاقات الرياضية وتحاول أن تنبض داخل أطار الفيزيائى بنفس القوة التى توجد فى العلوم الرياضية.

التقسيم الأول: ما يتعلق بالنصوص الدينية طبقا لما هو قائم فى العقل المتدين؛ وفى ذات الوقت أرشدت إليه هذه النصوص؛ وقدمت إشارات محددة فالزوجية مثلا فى المخلوقات حتمية دينية جاءت بها النصوص الشرعية من ذلك قوله تعالى:﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وهى آية عامة فى كافة المخلوقات.

وبناء عليه فإن كل نوع من المخلوقات تسرى فيه هذه الزوجية سريانا حتميا، لكنه قابل للاستثناء الذى يمثل سنة من سنن الله غير المطردة [2]، فالزوجية تجرى على قدم وساق فى الأنواع، كبنى الإنسان مثلا، إذ جرت سنة الله أن يكون المعتاد فى الخلق الإلهى هو إنجاب الذرية من ناحية الأب والأم، وفى ذات الوقت فتح الباب لبيان أن من فعل الله ما لا يحتاج إلى الأب، كالحال مع خلق الله تعالى لسيدنا عيسى ابن مريم – عليهما السلام – يدل عليه قوله تعالى:(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[3]، وخلق سواه من غير أم وهى حواء، يدل عليه قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[4].

كما أن الزوجية قد جاءت مع جميع أفراد البشرية بعد أدم – (عليه السلام) – لأنه لا أب له ولا أم، وإنما هو مخلوق لله على ناحية خاصة، ثم جاء من بعده بنوه على القاعدة الزوجية [5]، وإذا نظرنا إلى مفهوم الزوجية فى الجانب

(١) سورة الذاريات الآية ٤٩.
(٢) السنن المطردة هى التى جرت كلمة الله تعالى ببقائها على ما هى عليه منذ بدء الخليقة إلى منتهاها،وذلك مما وردت به النصوص النقلية، كخلق الكون وارتباط أجزاءه بعضها ببعض، يدل عليه قوله تعالى:" اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " سورة الرعد الآيتان ٢، ٣.
(٣) سورة آل عمرآن الآية ٥٩.
(٤) سورة النساء الآية ١.
(٥) راجع للأستاذ البهى الخولى – آدم خلافته وفلسفة تقويمه ص ١٣ ط القاهرة ١٩٦٣ م.

البيولوجى يتضح أن الحتمية واردة فيه كسنة إلهية، ثم تاتى عمليات الاستثناء لتكون أيضا داخلة فى نطاق السنن الإلهية المطردة.

بل أن المخلوقات فيها أيضا زوجية، يدل عليه أن السماوات سبع، والأرضيين سبع، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ *وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ* وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1]، وقوله تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[2]، وكذلك وردت عمليات التوالد المعبرة عن الزوجية بين الليل والنهار، والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3]، وقوله تعالى:﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [4].

ولا يخفى أن هذا العطاء القرآنى يفيد قيام الزوجية فى هذه الكائنات وأمثالها؛ من الناحية البيولوجية – فى الإنسان والحيوان؛ ومن الناحية الإنمائية فى النبات عن طريق عمليات التلقيح النباتى التى لا دخل للإنسان فيها [5]، وإنما تتم كسنة إلهية مطردة.

ومن المؤكد أن الحتمية الدينية عندنا نحن المسلمين طبقا لما سبق بيانه؛ تأتى أدلتها معها، ولا يتخلف الدليل عن المدلول؛ نظرا لمجئ كل منهما من عند الله –تعالى–، يدل عليه قوله جل شانه:﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ

(١) سورة الذاريات الآيات ٤٧: ٤٩.
(٢) سورة الطلاق الآية ١٢.
(٣) سورة لقمان الآية ٢٩.
(٤) سورة الزمر الآية ٥.
(٥) بعض عمليات التلقيح فى النبات تتم بعيدا عن الإنسان، كالحال مع ما لا يمكن للإنسان القيام به ومنه الحبوب والبقوليات، ومنها ما يتم عن طريق الإنسان،ويسمى بالتلقيح الصناعى، أو التهجين السلالى نظرا لتدخل الإنسان فيه.

اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾[1].

فالزوجية قائمة بين الليل والنهار، وكل منهما يأخذ من الآخر على قاعدة الفعل الإلهى؛ فيطول أحدهما صيفا، ويقصر عنه الأخر شتاء؛ طبقا لما جاء فى الحكمة الإلهية.

فى نفس الوقت فإن الحتمية الدينية تكشف للإنسان عن قيامها على مترتبات شرعية، فمثلا الموت حق لله تعالى على كل مخلوق من ناحية الله – (ﷻ) – وهو فى ذات الوقت قدر لا دخل للإنسان فيه كالحياة تماما بتمام، يدل عليه قوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[2]؛ فدلت الآية على أن الموت مخلوق لله تعالى كالحياة تماما بتمام، بل إنه سابق عليها، وهى لاحقة له على سبيل الحكمة الإلهية، فمثلا الموت يفاجئ الصحيح، وقد يترك المريض، وهو قدرا لا حيلة لأحد فى رده، والحوادث السابقة عليه يمكن اعتبارها دالة على طريق انتهاء الأجل الأول قال تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]، فالموت على الناحية الحتمية سابق على الحياة طبقا لما جاءت به النصوص الدينية من ناحية الخلق، ولا يجادل فى ذلك عاقل أبدا.

أضف إلى ما سبق أن الإنسان العادى قد يلاقيه الموت من غير مرض سابق، وبالتالى تبقى الحتمية على هذه الناحية قائمة، بمعنى أن ما قدره الله تعالى بأسبابه العادية يقع طبقا لما جاء في الحكمة الإلهية من حيث أن الحكمة الإلهية كما ذهب إليه الإمام الغزالى هى: " العلم والعمل بمقتضى ذلك العلم "[4].

(١) سورة الإسراء الآية ١٢.
(٢) سورة الملك الآية ٢.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨.
(٤) راجع للإمام الغزالى – المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ص ٦٨ ط مكتبة الجندى بالقاهرة.

والإمام الغزالى رحمه الله حين يقرر أن الحكمة الإلهية يقع فيها الارتباط بين العلم والعمل، بمقتضى ذلك العلم، فإنما يؤكد على سبق العلم الإلهى لكل واقعة يتم تنفيذها من حيث أن العلم صفة انكشاف، بينما القدرة صفة تنفيذ(١).

اخلص مما سبق إلى أن الحتمية الدينية متنوعة؛ منها ما يتعلق بالكائنات العلوية كموضوعات لها، ومنها ما يتعلق بالجوانب البيولوجية فى الإنسان، والحيوان، ومنها ما يتعلق بالنواحى الإنمائية فى النباتات والبقوليات وغيرها، ومنها ما جرت به سنة الله دون أن نعلم حقيقته على ناحية تفصيلية؛ كحركة الزمان وما يتعلق بها، وما يرتبط بكل من الشمس والقمر من ناحية الأفلاك الدائرة فيها ومحاولة كل منها الإسراع لتنفيذ ما يرتبط به؛ يدل على ذلك قوله تعالى:" لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ "(٢).

والمؤمن الملتزم بما جاء من عند الله تعالى يقر بأن هذه الحتمية الدينية جاءت بها نصوص دينية، وارتبطت بجوانب عملية، كما تعلقت بها أمور سمعية، طبقا لما هو قائم فى علم رب البرية، ونحن المسلمين نتمسك بذلك، ولا نتحول عنه.

التقسيم الثانى: باعتبار النظر والتجريب:

ذهب أصحاب الحتمية من غير الدينيين إلى اعتبارها واقعة فى نطاق يمكن تجريبه، أو لا يمكن تجريبه، وما أمكنه التجريب فيه باعتبار النتائج؛ عرفوه بأن الحتمية العلمية التجريبية هى " ما يقع فى الكون من أحداث نتيجة حتمية للأحداث التى سبقتها، ومقدمة ضرورية للأحداث أخرى سوف تلحقها إذ لا استثناء فى شئ من ذلك، كما أن الكون نظام محكم صارم يدل حاضره على

(١) القدرة الإلهية تتعلق بالممكنات إيجادا لها وإعداما؛ طبقا لما جرى الحكم الآلهى؛ وبالتالى فلا تعلق لها بالمعدوم إلا على سبيل استمراره فى العدم.
(٢) سورة يس الآية ٤٠.

مستقبله، كما تخضع سائر أجزاءه لقوانين صارمة يكتشفها العلم يوما بعد يوم [١].

وبناء عليه تنوعت هذه الحتمية العلمية إلى أنواع منها الحتمية الرياضية، والتطبيقية، ويقصدون بها ما يمكن تطبيق قواعده فى الواقع العملى، وتم التأكيد عليه من خلال النتائج الضرورية [٢].

وهذا النوع يمثل العلائق المتصلة بالكائنات الفيزيائية حيث تكون قوانين الرياضة هى ذاتها القابلة للتطبيق عليها، يقول " بوست ":إن الحتمية التطبيقية هى جملة من القوانين التى ترتبط ببعضها تبعا لموضوعاتها والوقائع المترتبة عليها [٣].

ولا يخفى أن الحتمية التطبيقية بهذا المعنى؛ تمثل عملا توظيفيا باعتبار أن الرياضة عمل عقلى خالص، بينما التجربة عمل فيزيائى كامل فإذا انتقل عمل الرياضة العقلى الخالص إلى المفهوم الفيزيائى صارت هذه المفاهيم فيزيائية رياضية معا [٤].

ويقرر أصحاب هذا النوع من الحتمية؛ أن العلوم التجريبية فى سعيها إلى أن تبلغ دقة العلوم الرياضية حرصت على استحداث قوانين فيزيائية ؛ اتسمت بالضرورة، أو هكذا وصفت بأنها قوانين ضرورية [٥].

---

(١) الدكتورة: يمنى طريف الخولى – فلسفة كار ل بوبر منهج العلم ومنطق العلم ص ٧١ ط أولى.

(٢) يراجع الدكتور: محمود فوزى عبد العظيم ، مناهج البحث العلمى، ص ٢١، طبعة أولى ١٩٨٣م.

(٣) يراجع أندريه بوست – مقال فى فلسفة العلم والحتمية، ص ٤٣، ترجمة فوزى صابر، بيروت لبنان ١٩٩١م.

(٤) تحاول العلوم الطبيعية أن تكون فى قوة العلوم الرياضية، أو تسعى إلى ذات المنهج من ناحية التجريد والعموم، الدكتور: زكريا فاضل –مناهج البحث العلمى ص ٢٤، طبعة أولى ١٩٨٣م.

(٥) يراجع الدكتورة: يمنى طريف الخولى ، العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية ص ١٧٢، القاهرة، عام ٢٠٠٠.

وأنوه إلى أن هذا النوع من الحتمية قد يكون مقبولا لدى أصحابه، ومقبولا منا أيضا إذا كان فى إطاره العلمى؛ أما أن يغلق الباب أمام القدرة الإلهية فذلك مما ارفضه دينيا وعلميا.

لقد كان جاليليو يقرر: أنه لا يمكننا فهم الكون إلا إذا تعلمنا اللغة التى كتب بها، وفهمنا أيضا الرموز الواردة فيه، وإن هذا الكتاب مكتوب باللغة الرياضية، وأن الكون هو الآخر مؤلف تأليفا رياضيا. (١)

وإذا كان لنا مواصلة الحديث عن هذا النوع من الحتمية العلمية التطبيقية، فإنما يكون عن موضوعه نظرا لقيام الحتمية فيه على تجريد القوانين الفيزيائية تجريدا كاملا، والتعبير عنها بأرقام حسابية، أو رموز جبرية تمثل العمل العقلى الرياضى، وهذا من شأنه إيقاع أصحابه فى عمليه الخلط التى تحول بين النظر العقلى الخاص وبين عمل القلب الواعى النورانى(٢).

وقد نبه إلى هذا النوع من ناحية الموضوع والتطبيق العملى وأكد على أن التمسك به بعيدا عن النصوص الدينية يوقع أصحابه فى الضلال فيذكر دكتور محمود قاسم " أن الحتمية الرياضية التطبيقية وإن اعتمدت فى أكثرها على العقل إلا أن الحس يبقى له نصيب ضئيل فيها أما لماذا فلأن موضوعاتها لا توجد حقيقة "إلا باعتبار أنها مجردة عن كل مادة حسية "(٣).

وفى تقديرى إن البحث العلمى الخالص جاء فى النصوص الشرعية بالحث عليه، أما أن يكون معبودا من دون الله، أو أن يغلق عمل القدرة الإلهية،

---

(١) يراجع الدكتور: محمود زيدان، مناهج البحث لعلوم الطبيعة المعاصرة، ص ٢٠٧، وهذا التأكيد من جاليليو على أن الكون كتاب يفيد أن له صانعا قادرا عليما مدبرا؛ فهل فطن جاليليو إلى هذا، أم أنه تمسك بالمبادئ الرياضية واعتبرها هى الخالق للكون؟.

(٢) العمل القلبى النورانى ترتكز فيه العقيدة الدينية وبالتالى هذه المسألة ثابتة فى الفطرة ، يدل عليه قوله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة الروم الآية ٣٠.

(٣) الدكتور: محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، ص ٢٨٦، الطبعة الخامسة، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م.

أو يضيق مجال عملها، أو ينسب للعلم الإنسانى مالا ينسبه لله، فهذا مما يجعلنا نقف فى مواجهته، ونؤكد على أوجه القصور فيه.

وهناك نوع يمكن تسميته بالحتمية النظرية مع أنها رياضية نظرا لارتباطها لا بالواقع التجريبى، وإنما بالمقدمات العقلية، ولذا تعرف بأنها ما يقوم "على ضرورة ترتيب النتائج الصحيحة، وارتباطها بالمقدمات المسلمة نظرا للعلاقة القائمة بين أطرافها، فإذا سلمنا بالمقدم كان من الضرورى أن نسلم بالتالى، بغض النظر عن تطبيق ذلك فى الواقع العملى [١].

والحقيقة أن هذا التعريف للحتمية الرياضية، قد يكون مقبولا لدى أصحابه، وبخاصة الذين يعملون فى ميدان الأرقام الحسابية باعتبار أن الأرقام الحسابية؛ ما هى إلا أفكار مختزلة؛ يقوم العقل بها بعد تعريفه بجزيئاتها ثم ينتهى إلى قبول نتائجها الصحيحة [٢].

ولما كانت الأرقام الحسابية موجودة فى الذهن دون الواقع، فقد صارت أرقاما مجردة يحكم بها العقل وتتمسك بها قوانينه دون أن تكون هناك واقعات تطبق عمليا، أضف إلى ما سبق أن الحتمية الرياضية النظرية تعبر عن القضية الرياضية بماهية رياضية، وأعنى بذات المفهوم ما يتعلق بها بعد تطويرها؛ إذ يعتقد الكثيرون أن القضايا الرياضية البحتة إنما تألفت من مجموع قضايا صادقة دائما ويقينية، ولا صلة لها بالواقع التجريبى –كما لا يعتمد فى صدقها عليه–، ومن ثم فقد تتفق قضاياها مع الواقع وقد لا تتفق فإذا اتفقت أمكن القول بأنها موافقة للواقع، وإذا لم تتفق معه أمكن القول بأنها صادقة صوريا ومنطقيا[٣] مع أنها لم تتفق مع الواقع.

(١) راجع جورج فيدر، العلم والفلسفة وجها لوجه، ص٨١، ترجمة وفاء فوزى، طبعة بيروت، ١٩٩٣م.

(٢) راجع للدكتور: على محمد جبر– مناهج البحث، ط المطبعة الفنية، ١٩٦٣م، وراجع له أيضا منطق حديث، ص ٤١، ٤٢.

(٣) يراجع جورج فيدر، المنطق الرياضى والدلالات العلمية، ص ٤٥، ترجمة: أمل المراكبى، طبعة بيروت ١٩٨١م، راجع للدكتور، محمود زيدان، مناهج البحث فى العلوم الطبيعية، ص ٢٢.

من الواضح أن هناك بعدا معرفيا بين الحتمية الرياضية النظرية، والأخرى التطبيقية على أساس أن التجريبية انتهت إلى التجريد، وأدى ذلك إلى جعل الرياضة النظرية على قمة العلوم فدفع بها إلى اعتبارها ملكة العلوم، ولذا يذكرون أن (البحث الصورى الرفيع المتعالى عن شهادة الحواس، هو الحتمية الرياضية النظرية لأنها لا تعزف فى جزئيات الواقع وإنما تتحول إلى مفاهيم متعالية(١).

مما سلف بيانه تأكد أن موضوع الحتمية الرياضية النظرية قائم فى جملة الأعداد والرموز والعلاقات إلى يمكن أن يأتيها نوع من التبادل الإستخدامى التوظيفى(٢)، فإذا تم استخدام الرموز الجبرية بدل الأرقام الحسابية كان اصطلاحا خاصا منقولا من طائفة بذاتها وعلم بذاته.....الخ، وكذلك الحال مع الباقى.

وهنا يأتى سؤال ضرورى هل تعد الحتمية الرياضية النظرية أمر لا مفر منه ؟ أم أنها من خلق الله للعقل الإنسانى وجعله قابلا للزيادة عليه أو النقصان منه ؟

والحق أن الإجابة عن هذا التساؤل قد تكفلت بها النصوص الدينية التى بينت طبيعة العقل الإنسانى التى خلقه الله عليها ورغبته فى البحث عما يطمئن إليه أو يسعى لتحصيله حتى ولو كان ذلك من الأمور الغيبية يدل عليه قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣).

(١) راجع لأنطوان بيير، البحث العلمى والمناهج الرياضية، ص ٨٥، ٨٦، ترجمة هدى عبد الباقى ١٩٩٣م.
(٢) العلاقات تتمثل فى الطرح والضرب والجمع والقسمة، أما الرموز فتتمثل فى أ، ب، ج، د، وما بعدها، وأما الأعداد فتأت من الصور الرقمية حيث تبدأ من رقم واحد ثم تستمر إلى مصطلح مالا نهاية.
(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

ومحل الشاهد أن الروح سر من أسرار الله تعالى، ومع هذا دفع النص القرآنى العقل الإنسانى حتى يبحث فى كل جوانب العلم من خلال تحفيزه على ذلك بقوله تعالى:﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١).

كأنه يقول إن كنتم تريدون العلم الكثير فابحثوا ولا تتوقفوا، فمن يبحث عن العلم على مراد الله أعطاه الله، ومن يبحث عنه بهوى نفسه سقط فى هواه.

وبناء عليه فمن وقفوا عند الحتمية الرياضية النظرية؛ اعتبروها خالقا للكون، أو بديلا عن الله جل علاه؛ من ناحية التصرف فى الملك اخطأوا فى حق أنفسهم، كما استهانوا بعقولهم؛ ثم أضاعوا أعمارهم فى البحث عن المجهول؛ ومن هنا حق عليهم ما حق على غيرهم.

النوع الثالث: الحتمية الطبيعة

ويعنون بها حتمية العلم؛ القائم على ارتباط الحوادث المسبوقة بالحوادث اللاحقة ارتباطا شرطيا، يقول الدكتور محمد مهران:" إن الحتمية الطبيعية هى حتمية تكون مسبوقة بحوادث مشروطة، وكلما كانت العلاقة بين الحادث وشروطه متوفرة فإن الحتمية تكون ضرورة طبيعية، وإذا انتفى شئ من هذه الشروط تصير الحتمية منعدمة(٢).

والحتمية الطبيعية على هذا المعنى داخلة فى النطاق الفيزيائى؛ نظرا لأن الفيزياء هى قيام العلم بشروطه، وكلما كان العلم قائما بشروطه تحققت الحتمية الفيزيائية، ويقرر" فوكر" أن الحتمية الطبيعة إنما هى نتاج بحث فيزيائى؛ أدى إلى ضرورة ارتباط الأسباب بالمسببات على ناحية طبيعية؛ لا دخل لأحد فيها(٣)، إنما المعول عليه هو العلاقة الرابطة بين الأسباب والمسببات دون اعتبار لشئ آخر.

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٨٥.
(٢) يراجع الدكتور: محمد مهران، الدكتور: حسن عبد الحميد، فلسفة العلوم ومناهج البحث، ص ٢٢٤، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس ١٩٧٨م.
(٣) يراجع جورج فوكر: الطبيعة الفيزيائية، ص ٩٤، ٩٥، ترجمة وفاء صابر، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.

ولا يخفى أن الحتمية الفيزيائية تطبقها قوانين علمية؛ لكن مشكلتها تكمن فى عدم قبولها لأى صورة من صور الاستثناء؛ أو الشذوذ؛ ويؤكدون أن الظواهر التى تضبطها هذه القوانين ترتبط بظروف حتمية ضرورية مطلقة(١)، لا تقبل التعديل فيها.

ويلاحظ أن الحتمية الفيزيائية تعتمد فى موضوعها على جملة الظواهر الطبيعية؛ التى تجئ نتائجها لازمة لأسبابها، ويذكرون أن العلة لازمة للمعلول حتما؛ فإذا وجدت العلة كان وجودها حتما؛ بحيث يتبعه وجود معلولها، وإذا عدمت كان عدمها حتما تابعا إلى عدم، أو انعدام أسباب وجودها(٢)، من ناحية المعلول.

غير خاف أن الحتمية الفيزيائية؛ يمكن اعتبارها من نتاج الفلسفة الطبيعية، ولكن ما يفرقهما هو عملية التنبؤ التى تتسم بها الفيزيائية؛ نظرا لارتباطها فى جانب منها بمنهج التوقع؛ ويسمى أحيانا الظواهر غير المدركة.

وأنوه إلى أن الحتمية الطبيعة فى صورتها الفيزيائية لها شروط محددة تحديدا علميا لدى أصحابها؛ بناءا على جملة الظواهر التى تسبقها أو تصاحبها؛ حتى قالوا إن ما يؤدى إلى حدوث الظاهرة أو يؤدى إلى عدمها ترتبط الظاهرة به ارتباطا حتميا؛ فإذا بانت ظاهرة كان حدوثها واقعا، فقد تأكد أن السبب الذى قامت عليه له وجود فعلى، وإذا انعدمت انعدم وجود الفعل (٣).

وفى إعتقادى أن البحث العلمى لا يضره قيامه على البناء الفيزيائى، ولكن يهدم اعتقاد أن الفيزياء فاعلة بذاتها، نظرا لارتباط جملة الظواهر ببعضها ارتباطا عليا، أما لماذا؟ فلأن كل ظاهرة يدركها الإنسان يكون قيامها على ظاهرة أخرى، ومرجع الكل إلى الخالق العظيم جل علاه، وقد نبهت إلى ذلك آيات القرآن

(١) الدكتور: صابر عبد المقصود فوزى– العلوم الفيزيائية وقوانينها العلمية، ص ٢٤، ٢٥، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
(٢) راجع فى هذه المسألة للدكتور: عبد الصمد محمود صالح، القوانين العلمية والفلسفة المعرفية، ص ٦٥، ٦٦، طبعة أولى، ١٩٨٤م.
(٣) لمزيد من الحديث عن هذه الجوانب راجع الدكتور: فوزى محمد صابر –الحتمية والقوانين العلمية ص ٩٣: ٩٥، طبعة أولى ١٩٨٣، وللدكتورة: نهى السيد فوزى، العلوم الطبيعة والاغتراب والحرية، مقال فى فلسفة العلم من الحتمية إلى اللا حتمية، ص ١٨٢، ١٨٣.

الكريم، وأحاديث المصطفى الأمين (ﷺ)؛ فمن الآيات الكريمة قوله تعالى:﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١)، وقوله تعالى:)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢)، وفى ذات الوقت يقول الله جل شأنه﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

وبناء عليه، فإن الإنسان الواعى يجد نفسه واقفا عندما خلقه الله تعالى، متأملا ومفكرا، أو مستفيدا، دون أن يضيف إلى ذلك ما يقلل من دلالة الصنعة على الصانع، وإنما يضيف إليها؛ ويعتبر ذلك من الأدلة على وجود الله تعالى، وكمال علمه وتمام إرادته، ونفاذ قدرته، فسبحانه وتعالى هو اللطيف الخبير.

التقسيم الثالث: باعتبار الكيميائية والهندسية:

يعتقد أصحاب الحتمية العلمية أو غير الدينية أنها تتنوع إلى حتمية كيميائية، وتعرف بأن مقدار المادة فى الكون ثابت لا يقبل التجدد ولا يسمح بالفناء، اعتقادا علميا بأن التعاملات الكيميائية العادية تتم دون فناء أجزاء المادة أو زيادة أجزاء أخرى عليها (٤).

ومعنى هذا أن الحتمية الكيميائية لها ارتباط وظيفى بالمادة الجامدة التى تراقب تحولاتها المختلفة سواء أكانت المادة صلبة، أم سائلة، أم غازية، المهم ألا يقع عليها شئ من النقصان أثناء تلك التحولات، وهذا يفضى إلى القول بأن المادة ضابطة لنفسها تلقائيا، ولا تسمح لأحد أن ينال من طبيعتها، وهذا مما دفع البعض إلى اعتقاد أن المادة خالقة، فأدى بهم ذلك إلى الإلحاد العلمى باسم العلم، كما أدى بهم إلى الإلحاد فى الدين باسم العلم أيضا(٥).

(١) سورة النحل من الآية ٨.
(٢) سورة الصافات الآية ٩٦.
(٣) سورة النمل الآية ٧٥.
(٤) الدكتور: محمود قاسم– المنطق الحديث ومناهج البحث، ص ٢٣٨.
(٥) يراجع الدكتور: يحى هاشم فرغلى، الإلحاد العلمى حيث عرض تلك الصور من خلال آراء أصحابها، وقدم لها نماذج متعددة ثم بين فسادها من النواحى المختلفة فقدم بذلك خدمة بحثية لطلاب العلوم العقلية بجانب العلوم النظرية.

أنوه إلى أن الحتمية الكيمائية ذات موضوع يقوم على جملة التفاعلات التى تتم داخل المادة الصماء ويطلق عليها أصحابها اسم " علوم المادة الجامدة"(١).

ومن المؤكد أن مبدأ الحتمية لدى هؤلاء قائم فى طبيعة الثبات المادى للمادة وليس فى خواصه ومظاهرة نظرا لأن الخواص مبصرة، والمظاهر أيضا مبصرة، فالقول بالحتمية الكيميائية لا يخرج عن هذا الإطار، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتعلق بجملة القوانين الكيميائية التى تفسر العلاقة بين المادة الجامدة والآثار المترتبة أمكن القول بأنها حتمية ترتد إلى صورة من صور البحث المعرفى فى الجانب التطبيقى لكنها قد تقبل الاختزال المعرفى، والاختزان الذهنى.

وبناء عليه فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن التحولات التى تجرى فى المادة الجامدة إنما هى تحولات غير مقصودة كيميائيا؛ ولا بد من أن تكون مرتبطة بعلم إلهى؛ وقدرة ربانية (٢).

ولا يخفى أن هذا النوع من الحتمية يحمل معاول هدمه عندما يسعى القائمون عليه لتأكيد نشاطه والضغط على العقيدة الدينية حتى تسلم لأن القوانين الكيميائية هى الفاعلة، وليست القدرة الإلهية على أساس أن المادة الصماء تفتقد القدرة والإرادة والعلم بل تفتقد الحركة، والتعاملات التى تتم إنما هى حركة والقاعدة أن فاقد الشئ لا يعطيه، وبناء عليه تكون الحركة القائمة فى المادة شاهدة على أن لها محركا خالقا قادرا عليما هو الله جل علاه ولا شئ سواه.

وأنوه إلى أن الحركة الثابتة فى المادة الجامدة حسب التصور الكيميائى إنما دلت عليها النصوص الدينية فالأرض الجامدة فيها حركة تسبيح وكذلك

(١) هذا التعريف وذلك الإطلاق يوجدان فى المؤلفات الكيمائية على نحو متواصل، راجع لجورج فينر، العلوم الكيمائية والمصطلحات الفنية، ص ٤١-٤٥، ترجمة هناء زكريا مراجعة الدكتور على المغربى.
(٢) راجع للأستاذ وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص ١٧٨، ترجمة ظفر الدين خان، مراجعة الدكتور عبد الصبور شاهين، ط دار الاعتصام ١٩٧٣م.

السماء بدليل قولة تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١).

وبناء عليه تكون الحركة الكامنة فى المادة الجامدة ذات وجود فعلى جعلها الله -(ﷻ)- كامنة فيها على الكيميائيين تلك الصور؛ لحكمة لا يعلمها إلا هو القائل:﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٢).

ويغلب على تقديرى أن محاولات الكيمائيين إقامة حتمية كيميائية تنضبط بها الكائنات العلوية والسفلية؛ دون حاجة إلى رب البرية؛ إنما هى محاولات خارجة عن قوانين العلم ذاتها وقد أحدث التطوريون مثل هذه الأحدوثات؛ فلما انتهوا منها بان أن أقوالهم خلت من الواقعية وبعدت تماما عن القوانين العلمية التى تدعى تمسكها بها وتزعم قيامها عليها.

النوع الثانى: الحتمية البيولوجية:

يذهب أصحاب العلم البيولوجى إلى أنها "ما يتعلق بنوع من الكائن الحى ويرتبط ارتباطا وثيقا بعلوم الحياة "(٣).

ويعتقدون أيضا أن كل كائن حى يبدو أول مرة مذودا بقوى باطنة كامنة فيه تشرف على جملة من المظاهر الحيوية؛ ثم يأخذ فى الاستقلال شيئا فشيئا، طبقا للمؤثرات الفيزيوكيميائية، وكلما ارتفع الكائن الحى فى سلم التطور العضوى، كلما حقق ألوانا من النجاحات البيولوجية على سبيل الحتمية، ولذا قرر كثير منهم أن الحتمية البيولوجية "انعكاس كامل للحتمية الفيزيائية والمادية الصارمة التى طبعت الفكر العلمى منذ نيوتن وما بعده " (٤).

وإذا كانت الحتمية البيولوجية قائمة على ناحية عضوية؛ بعيدة عن ظواهر الحياة؛ فأنها دالة على خضوعها لقوة عمياء لا قانون لها ولا ضابط، وهذا فى حد ذاته مما يهدم القول بأنها صانعة الحياة، لقد كان " فيرباخ" يعتقد أن

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.
(٢) سورة الملك الآية ١٤.
(٣) راجع، هانز ريشنباخ– نشأة الفلسفة العلمية،، ص ١٧٢، ترجمة فؤاد زكريا.
(٤) راجع الدكتورة: يمنى طريف الخولى–العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية ص ٢٠٠.

البيولوجيا هى التى صنعت الإنسان، وأنها التى نقلت كافة الكائنات من صورها الجمادية إلى الحيوية، وبالتالى فهى عاقلة واعية؛ تستطيع نصب قوانين عامة؛ تطبق فى الوقائع الحياتية [١].

من نافلة القول أن الحتمية البيولوجية لدى القائلين بها؛ تؤكد على قاعدة حتمية العلم البيولوجى، ثم تنتهى إلى أنه إذا لم يكن العلم حتميا لم تكن البيولوجيا هى الأخرى حتمية؛ وإذا تم التسليم بهذه الحتمية انعدمت الغائية؛ ولم توجد القوى الإرادية، وذلك بدوره يؤدى إلى أن كل القوانين البيولوجية وهمية، وفى ذات الوقت يقوم بناؤها الفسيولوجى والتشريحى على مجرد أوهام لا وجود لها؛ إلا فى عقول أصحابها.

يقرر " هانز ريشنباخ " أن كل ما يتعلق بالحتمية البيولوجية يؤدى إلى خضوعها لقوة عمياء نظرا لاقتصارها على دراسة تلك القوانين الخاصة التى تطبق مع القوانين الفيزيائية على الكائنات الحية تطبيقا مطرد، ومن ثم فليس فى البيولوجيا أى استثناء معروف وإنما هى قواعد حتمية[٢]، تمضى من البداية وحتى النهاية.

ولا يخفى أن تلك الحتمية البيولوجية على النحو الفيزيوكيمائى تنقص من قدر الإنسان نفسه أما لماذا؟ فلأن الإنسان عاقل مفكر والمادة التى تقوم أجزاءه عليها جامدة فمن أين يأتى العاقل من غير العاقل؟، وإذا كانت الظواهر الحية فى العلوم البيولوجية تخضع للآلية والقوى العمياء فكيف استطاعت هذه القوى العمياء أن تخلف فى الإنسان عقلا، وأن ترسم له مستقبلا، وأن تفصل أجزائه من عينين، ولسانا وشفتين، وقدمين وساقين وساعدين إلى غير ذلك من الوجوه، وهى فى ذات الوقت خاضعة لقوى عمياء ؟!.

(١) راجع: جورج فيرباخ، البيولوجيا والفيزياء والإنسان، دراسة ثلاثية الأبعاد، ص ٦٥، ٦٦، ترجمة عادل فوزى، طبعة أولى، ١٩٨٥م.

(٢) راجع لهانز ريشنباخ– نشأة الفلسفة العلمية، ص ١٧٣، وراجع لبول موى، المنطق وفلسفة العلم ص٢٠٣، ترجمة فؤاد زكريا المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٧٩ م.

ولقد دلت آيات القرآن الكريم على أن الأفكار التى تتعلق بالحتمية البيولوجية إذا أمكن ردها إلى فعل الإنسان جاءها القصور من كل ناحية إما إذا تأكد أمر عودتها إلى الله – تعالى – فأن الوفاء يأتيها على جوانب كثيرة، يدل عليه ما أمتن به الله تعالى على عباده، وبخاصة فى الإنسان بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(١).وقوله تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٢)، وقال جل شأنه:﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ *يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾(٣)، وقال جل شأنه:﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾(٤)، وقال عز من قائل:﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ*أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(٥).

من هنا تبين أن الحتمية فى منطوقها البعيد عن النصوص الدينية؛ تؤدى بأصحابها إلى اعتقادات فاسدة، وتدفع بهم إلى الهلاك، وكلما أسرف الإنسان فى التعامل معها على أنها فاعلة خالقة بذاتها، أو لذاتها، أو لغيرها أمعن فى الضلال، وسقط من حيث يريد العلو، وبان أنه ما يتبع إلا هوى النفس، والله – عز وجل قال:﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٦)، وقال جل شأنه:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٧).

وأؤكد أن التمسك بالعقيدة الإلهية، والتزام النصوص الدينية، والالتجاء إلى رب البرية، فيه العصمة من تلك الإختلالات البينية التى يزعم أصحابها قيامها

(١) سورة التين الآية ٤.
(٢) سورة البلد الآيات ٨: ١٠.
(٣) سورة الطارق الآيات ٥: ٧.
(٤) سورة الانفطار الآيات ٦: ٨.
(٥) سورة عبس الآيات ٢٤: ٣٢.
(٦) سورة فاطر الآية ٨.
(٧) سورة الجاثية الآية ٢٨.

على القوانين العلمية، وما هى إلا أوهام شيطانية تضل أكثر مما تفيد وتوقع أصحابها فى الهلاك من حيث يظنون أنه النجاة والله – عز وجل – قد بين أن الملحدين منكشفون، وأنه (ﷻ)، سوف يحاسبهم قال جل شأنه:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١).

وأود التأكيد على قاعدة عامة؛ هى أن الشريعة ما جاءت إلا لمصالح العباد؛ وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله(٢)، وكلما تحققت المفسدة بعدت عقول الناس وأفعالهم عما شرع الله.

كما أنوه إلى أن المصطلح العلمى يجب توظيفه فى نطاق ما يفضى إليه، ولا مانع من قبوله صحيحا إذا وافق القواعد العامة، إما اعتقاد أنه فاعل يملك من أمر الكون، أو أمر نفسه شيئا بعيدا عن الفعل الإلهى، أو خارج القدرة الإلهية؛ فأن ذلك مما يرد فى وجوه أصحابه والقائلين به، فما هى السنن الإلهية ؟ ذلك ما سوف ألمح إليه فيما سيأتى أن شاء الله تعالى.

الفصل الثانى
السنن الإلهية

(١) سورة فصلت الآية ٤٠.
(٢) العلامة الشيخ الشاطبى – الموافقات فى أصول الشريعة ج ٢ ص ٧، ٤٠ تحقيق الشيخ عبد الله دراز ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٦، وكذلك الاعتصام ج ١ ص ٤٠ حيث جاءت هذه العبارة فيها كما تردد ذكرها فى المؤلفات الأصولية.

تمهيد:

أفعال الله – تعالى – متنوعة، وأحكامه متعددة، ومظاهرها هى الأخرى متعددة؛ منها ما هو مرئى يمكن إدراكه، ومنها ما ليس مرئيا يصعب ضبطه على تلك القاعدة، ومنها ما هو مطرد، ومنها ما هو استثنائي بحيث إذا أمكن التعرف عليه صار مضبوطا لدى العقل الواعى على ناحية تعليلية من الناحية الشرعية، أما إذا لم يمكن ذلك فتبقى المسألة قائمة، إما فى الناحية التفويضية، وإما من الناحية التعبدية [١].

وهذا التعدد له أحكام كثيرة، ومسائل متعددة، وفى ذات الوقت له ارتباطات كثيرة؛ بعضها نوعى فردى وبعضها كلى جمعى، وطبقا للمنهج الذى سرت عليه؛ فإنى سأتحدث فى هذا الفصل عن السنن الإلهية؛ بحيث تنضبط العملية التقابلية بين السنن الإلهية والحتمية فإذا انتهى الأمر إلى نتائج تكون قائمة على أصول علمية وذلك طبقا لما يلى:-

أولا: مفهومها:

وردت مادة الكلمه (س- ن- ن)؛ فى القرآن الكريم حوالى ستة عشر مرة تقريبا [٢]، ولما كان ورودها فى القرآن الكريم بهذا العدد؛ فقد تنوعت معانيها القرآنية طبقا لما انتهى إليه أهل العلم فى هذا الشأن غير أنى سأتناول مفهومها فى:-

أ – اللغة:

وردت مادة الكلمة فى لغة العرب على العديد من المعانى:-

الأول: العادة القائمة والسيرة المتبعة تقول العرب هذا الفعل سنة؛ يقصدون به أنه عادة لا تتخلف[٣]، وكل عادة متبعة ومسألة ثابتة يصح أن يطلق عليها من ناحية اللغة سنة بهذا الاعتبار دون سواه.

---

(١) الفرق بين المرئية وغيرها، أن المرئية تقع عمليات الضبط لها من خلال الحواس، ويسمى العالم المشاهد وغير المرئية يمكن الوقوف على بعضها من خلال القوانين العلمية، ويسمى العالم غير المرئى، كالجاذبية، وما يجئ على هذا النحو.

(٢) يراجع أ: محمد فؤاد عبد الباقى، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، باب السين، ص ٣٦٧.دار الكتب المصرية ط ١٩٤٥ م.

(٣) راجع لابن منظور:لسان العرب ج١٣،ص٢٢٠،طبعة دار صادر بيروت

الثانى: الفعل المحكم قالت العرب هذا أمر محكم يريدون أنه ثابت لا يقبل التغيير ويقولون أيضا هذا الأمر سنة يقصدون انه محكم(١).

وينقل الفيروزابادى جملة من معانى السنة فى اللغة حتى ينتهى إلى أنها؛ حكم من الله تعالى؛ متعلق به جل شأنه؛ يقوم على الأمر أو النهى (٢)، وكل ما يصدر عن الله تعالى يصح إطلاق لفظ السنة عليه باعتبار أنه من أفعال الله جل علاه.

المعنى الثالث: السيرة المتبعة فى الهدى النبوى:-

يقول ابن فارس هذا من سنة رسول الله (ﷺ) يقصد السيرة التى قضى حياته (ﷺ) عليه (٣)، وكل سنة متبعة قائمة على ملاحظة حال رسول الله (ﷺ) فإنها تكون واقعة فى هذا الحكم.

المعنى الرابع: الفعل الإلهى:

ذكرت العرب أن السنة هى ما يدل على فعل الله تعالى من الناحية الاطراديه والاستثنائية، ويستدل الشيخ المرتضى على هذا المعنى بقوله تعالى:﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(٤).

وبمتابعة المصادر العربية تبين أن ما يقع به الإتقان والإحكام يصح أن يطلق عليه لفظ السنة وبناء عليه فكل ما يصدر عن الله تعالى من أفعاله جل شأنه يصح وصفه بأنه سنة إلهية، ويذكر صاحب تاج العروس: أن السنة قد ترد بمعنى استمرار الفعل من المبتدأ إلى المنتهى فيقول: السنة هى السيرة حسنة كانت، أم قبيحة من حيث يبدأ وينتهى، وهى الطريقة المحمودة المستقيمة(٥).

ولا يخفى أن هذه المعانى المتنوعة تعطى صورة واضحة للعلاقة بين الفعل الإلهى، والمترتب عليه، فإذا تم توظيف هذا المعنى من ناحية السنة كان المراد به النقل المحدد والفعل السليم يدل عليه قولهم فلان سن سكينة بمعنى

---

(١) يراجع ا بن فارس معجم مقاييس اللغة،ص٤٧٤.،تحقيق شهاب الدين ط دار الفكر.
(٢) راجع للفيروزبادى، القاموس المحيط ج٤، ص ٢٣٣، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.
(٣) العلامة ابن فارس معجم مقاييس اللغة، ص ٤٧٤، الرازى –مختار الصحاح ج ١ ص ١٣٣.
(٤) سورة الأحزاب الآية ٦٢.
(٥) العلامة الزبيدى تاج العروس، ج١، ص ٨٧٥.

جعله محددا يصلح لكافة أنواع الاستعمال [١]، وفى نفس الوقت هناك علاقة ما بين معنى السنة ومعنى النقل حيث تقول العرب سن فلان ناتج قول يقصدون نقله بحيث لا يتأتى به إلا ما فيه المصلحة[٢].

مما سلف بيانه تبين أن السنة فى المنطوق اللغوى هى الطريقة القائمة، والعادة المنضبطة فى الفعل المحكم المتعلقة بالأمر، أو النهى الإلهى، ويجوز أن تبقى ويجوز ألا تبقى؛ فكل سنة عادية؛ إنما هى بحكم نظرنا إليها ويستشهد لهذا المعنى بقولهم سننت الإبل، إذا أحسنت رعايتها والقيام عليها [٣].

ب – فى الاصطلاح.

وردت السنة فى الاصطلاح بمعان متعددة طبقا للمعطى الدلالى، والمصدر الذى قامت عليه؛ فمثلا السنة النبوية تعرف بأنها "كل ما أثر عن رسول الله (ﷺ) من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة حقيقة، أو حكما، أو كان خصوصية من خصوصيات رسول الله(ﷺ)[٤].

وهذا التعريف ينطبق على السنة النبوية كل الانطباق، بل يمثل رأى المتأخرين من المحدثين فى المسألة، ولهذا أكدت عليه.

أما السنة الإلهية فتعرف بأنها: العادة الجارية المستمرة الصادرة عن الله تعالى التى لا يقع لها تبديل، ولا نسخ من حيث أنها تجرى فى الأفعال والإخبار، وكلاهما لا ينسخ [٥].

كما أن السنن الإلهية عندما يتم النظر إليها؛ يصح تعريفها بأنها ما يجرى من الله تعالى فى خلقه ويتم الإخبار به من حيث أنها تقع فى نطاق علمه الذى

(١) العلامة الجوهرى، الصحاح، باب السين ٦١٥.
(٢) راجع للعلامة لويس المعلوف قطر المحيط، باب السين،ص٥١٢، والمعجم الوسيط باب السين، ص ٤٥٦.
(٣) هذا التعريف للسنة أمكننى جمعه من المعانى اللغوية حسب توفيق الله تعالى، وأعتقد أن من وفق إلى غير ذلك فهو مما أفاء الله عليه به وأفضال الله لا تنتهى.
(٤) يراجع الشيخ: محمد منصور الدمنهورى، من أنوار السنة ص ١٣، ط الدار القومية، ١٩٢٥م.
(٥) يراجع الأمام الفخر الرازى مفاتيح الغيب، المجلد ١٢، ج ٢٤، ص ٦٢٣، طبعة دار الغد العربى ١٩٩٢م.

لا يحد بغض النظر عن كونها مطردة أو استثنائية وبناء عليه فكلها سنن إلهية [١].

وإذا تقرر أن السنة الإلهية هى ما يدل على فعل من أفعال الله تعالى فى خلقه وتجئ مظاهرها فى صور متعددة؛ فإنها تحمل الإعجاز وتسوق إلى الحكمة، التى يعرفها الشيخ الرئيس ابن سينا بأنها –الحكمة – (استكمال النفس الإنسانية، بتصور الأمور، والتعريف بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الإنسانية، كما أنها صناعة نظر يستفيد منها الإنسان بتحصيل ما عليه الكون كله فى نفسه، وما عليه الواجب لتشرف بذلك نفسه، وتستكمل، وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود؛ كما تسعد لتحصل السعادة فى الدنيا؛ والقصوى فى الآخرة وذلك بحسب الطاقة الإنسانية [٢].

ومما يؤكد أن السنة الإلهية؛ هى الحكمة، والموصل إليها؛ ما ذهب إليه ابن مسكويه من أنها وضع الشئ فى موضعه، بجانب أنها فضيلة النفس الناطقة المميزة [٣].

من ثم فكل ما يصدر عن الله تعالى؛ إنما هو سنة، وقد جاء الحديث عنها من خلال نماذج متعددة، منها ما يتعلق بالخلق، ويستدل عليها بقوله تعالى:﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٤]، والمعنى أن الذى ترون وتدركون آثاره وتتعرفون مظاهره فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد والعوالم الكونية؛ إنما هو من خلق الله تعالى وحده لا شريك له.

كما أن هذه السنن الإلهية قد جاء دور الحديث عنها من ناحية الصنعة؛ بجانب ما فيها من جمال وكمال، وإتقان، ويستدل على ذلك كله بقوله تعالى:﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٥].

---

(١) راجع للشيخ: محمد بن ناصر الدين المرعشى، نظرات فى آيات الله، ص ١٤، ص١٥، طبعة أولى ١٩٢٨م.

(٢) يراجع الشيخ الرئيس ابن سينا، تسع رسايل فى الحكمة والطبيعيات، ص ٢، ٣، ومعها رسالة حى بن يقظان طبعة بيروت.

(٣) يراجع ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٢٤، ٣٦، تحقيق ابن الخطيب،مكتبة الثقافة الدينية ط أولى.

(٤)سورة لقمان الآية ١١.

(٥)سورة النمل الآية ٨٨.

وإذا نظرنا إلى السنن الإلهية العادية، أو بوجه عام، وجدناها لا تتغير نظرا لارتباطها بالقضاء والقدر، وهما من أجزاء العقيدة الإلهية [١].

فى نفس الوقت فإن من ملامح السنن الإلهية القضاء، وكل تغيير فيها "إنما هو بحسب تلك السنن علما بأن القضاء والقدر الإلهى مسيطر على جميع الكون" [٢].

وهذا الذى يتعلق بتعريف السنة الإلهية؛ يجعل الباحث فى فسحة من المعارف، وجمع كبير من المعانى؛ فإذا كانت السنة الإلهية هى التى تقود للحكمة، فأن أبسط ما يقال فى مفهومها أنها ما أجراه الله تعالى فى خلقه، ويجئ على ناحية مما اقتضته الحكمة.

وبناء عليه تعددت السنن الإلهية وتنوعت، فمنها ما هو مدرك بالحكمة العقلية نظرا لتعرف العقل عليه، ومنها ما هو مدرك بالإيمان القلبى، ومنها ما يزال قائما فى علم الغيب، أما الأول فيسمى المدرك بالعقل، وأما الثانى فيسمى المدرك بالتعبد، ومما يدرك بالعقل كل ما هو داخل فى نطاقه، وتقوم الأدلة عليه، طبقا لأحكامه الأساسية، وقوانينه الضابطة[٣].

ولا يخفى أن جميع المعانى التى وردت فى نصوص الشريعة، يمكن من خلالها التعرف على السنن الإلهية، كحركة الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، لأن ذلك من السنن الإلهية، ومع أنها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى على الحقيقة، إلا أن الكثيرين بحثوا مظاهره، وبالتالى هناك فرق بين التعرف على حقيقتها، وهو أمر غيبى، وبين محاولة التوظيف، وهو أمر تعليلى.

(١) أجزاء العقيدة الإلهية ستة، جاء بها الحديث الشريف فى قوله (ﷺ) الإيمان أن تؤمن بالله،وملائكته،وكتبة،ورسله، واليوم الآخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشره " ويعرف بحديث جبريل.

(٢) الأستاذ: مرتضى مطهرى، الكون والتوحيد فى المنظار الإلهى، ص ٢٤، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقانى، دار الأمير، لبنان ١٤١٣هـ.

(٣) أحكام العقل الثلاثة هى الواجب، والمستحيل، والممكن، أما ضوابط الفكر فثلاثة هى:الذاتية، والغيرية، والثالث المرفوع.

لا يخفى أن التعليلات إنما يقوم بها العقل الواعى، وقد وردت مادة الكلمة (ع ٠ ق ٠ل) فى القرآن الكريم حوالى تسع وأربعين مرة [١].

والعقل من أنوار الله تعالى وأنعمه التى لا تحصى، وهو داخل فى نطاق قوله تعالى:﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٢].

والعقل فى كل حالاته نور من أنوار الله تعالى، حيث يطبعها الله جل شانه فى عباده، به يتميزون، وفى امكاناته وملكاته التى لا تخرج عنها يتنافسون، بدليل أن العقل جعله الله حجة على عباده، ورفع التكليف عن فاقدى هذه الملكة، يدل عليه ما روى أن رسول الله –ﷺ – قال:" رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل " [٣].

ولا يخفى أن النائم إذا استيقظ، والصبى إذا احتلم، والمجنون الذى عاد إليه عقله، صار كل واحد منهم قادرا على ممارسة ما يناط به، وبالتالى يلزمه الله جل شأنه القيام بالتكاليف الشرعية كلها، لأن المانع لها فى الماضى قد ارتفع.

ولما كانت السنن الإلهية بهذا الاعتبار، فلقد بات الحديث عنها موصولا، يدل عليه ما يتعلق ببعث المرسلين إلى جميع المكلفين حتى يقطع أعذار المعتذرين، قال تعالى:﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٤].

ومن ثم فأن السنن الإلهية تؤدى عملها على الدوام، دون حاجة إلى شئ وراء ذلك، من حيث أنها سنة إلهية.

---

(١) الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم باب العين ص ٤٦٨،٤٦٩.

(٢)سورة إبراهيم الآية ٣٤، وقال تعالى:" وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" سورة النحل الآية ١٨.

(٣) الإمام النسائى – السنن الكبرى ج٣/ص٣٦٠ – باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ح٥٦٢٥ دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١ – ١٩٩١، ط أولى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري.

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥.

ثانيا: أقسامها:

تنقسم السنن الإلهية من حيث التعرف عليها، والدراسة لها إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: السنن المستمرة العادية المطردة:

وهى التى تثبت على الدوام لا ينقطع أمرها، وتعبر فى ذات الوقت عن فعل من أفعال الله تعالى، أو أمره وحكمه، وهذه السنة المطردة لا تتغير، نظرا لكون ثباتها فى ألفاظها، ومدلولاتها، وتحفظ فى ذات الوقت النظام الكونى من الانهيار، يقول الشيخ رشيد رضا: إن سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه، كما هى حاكمة على سائر خلقه [١].

وهذا القسم تأتى فيه الأحداث الافتراضية حجة على جميع الناس، فمثلا النهار له مبتدأ ومنتهى، والليل له مبتدأ ومنتهى، ولا يتداخل أحدهما فى الأخر إلا تداخلا نوعيا، فيزيد أحدهما فى طرفه عن الثانى مرة، ويزيد الثانى عن الأول فى طرفه مرة، كأن كلا منها يأخذ جزءا من صاحبه ما يحتاج، وهو المدلول عليه بقوله تعالى:﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[٢].

كما أن ثبات العوالم العلوية طبقا لما نعلم إنما هو سنة إلهية مطردة، فالسماء مثلا مرفوعة وتتم فيها عمليات السعة، ولم يحدث أن سقطت طبقا لما نعلم، قال تعالى:﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٣].

فالسنة الإلهية المطردة جارية على هذا النحو لا تختلف، حتى إذا أراد الله إنهاء ذلك العمر الكونى الزمانى الذي نعرفه، أمر السماء أن تغير وضعها، فيحدث فيها ما يمكن أن يحدث من الانشقاق وغيره، قال تعالى:﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[٤].

---

(١) الشيخ رشيد رضا – تفسير المنار ج ٤ عدد ١٦ ص ١١٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣.
(٢) سورة فاطر الآية ١٣.
(٣) سورة الذاريات الآية ٤٧.
(٤) سورة الانشقاق الآيتان ١، ٢.

كذلك اتساع السماء حتى تكون كالقبة فوق الأرض أو الخيمة على الواقعين تحتها يؤكد أن ذلك من السنن الإلهية، والقرآن الكريم قد نبه إلى ذلك فى قوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ *ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(١).

كما بين جل شأنه أن السماء سقف عال متماسك، قال تعالى:﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾(٢).

فإذا نظرنا إلى ما فيها من زينة للناظرين وكواكب تمثل العلامات الدالة على رغبات المسافرين تأكد لنا أن السنة الإلهية الاطراديه تسرى فى أجزاء الكون علوية، وسفلية، نباته وجماده، يدل قوله تعالى:﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٣).

وكذلك من السنن الإلهية أن النبات الذى يوضع فى الأرض يأمر الله الأرض أن تخرج ثمارها من ذات نوعه، فالقمح ينبت قمحا، والقطن يخرج قطنا، بل إن كل الفاكهة بحمضياتها، وأنواعها إنما تخرج من جنسها على أن ذلك من السنن الإلهية، قال تعالى:﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾(٤).

كما دلت السنن الإلهية الاطراديه على أن كل نوع يقبل أفراد نوعه، ويتعامل معه، ولا يقبل أفراد نوع آخر، و الدليل العملى أنه إذا سقط ماء على ا لأرض، فإن قليلة يصيب أصحابها بما يعجزون عنه؛ لأن الماء ليس من جنس الأرض، وبالتالى يتأثرون به كسنة إلهية استثنائية (٥)، كما أن هذا الماء قد يحدث لدى سكان الأرض ما يحقق عليهم شيئا من الغرق للبيوت، وتدمير للمحاصيل، وإنفاد للطاقة، وذلك كله ليس إلا مظهر من مظاهر الابتلاء الإلهى،

(١) سورة الملك الآيتان ٣، ٤.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٢.
(٣) سورة النحل الآية ١٦.
(٤) سورة عبس الآيات ٢٦:٣١.
(٥) السنة الإلهية الاستثنائية هنا تتمثل فى سقوط المطر على اليابس أما إذا سقط المطر على المحيط والأنهار والبحار فإن ذلك من السنن الإلهية الإطرادية.

وتحريك الناس إلى مصدر القوة والعظمة والخلق والإعجاز، وهو الله رب العالمين.

وعلى العكس من ذلك فإذا نظرنا إلى إنسان غرق فى بحر فإن البحر يلفظ جثته لماذا ؟ لأن الجثة من طين، والبحر من ماء، وكل منهما ليس هو نوع الآخر، والشواهد الحياتية دالة عليه.

وإذا دفن فى قبر واحد أشخاص كثيرون على سبيل التوالى، فإن الأرض تستوعبهم، والقبر يحتفظ بهم لا يلفظهم؛ فإذا بحثنا هذه المسألة جاء البيان القرآنى مؤكدا تلك الحقيقة فى قوله تعالى:﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾(١).

ومما يدل على أن القبر للإنسان لا يكون إلا فى جوف الأرض، وأن ذلك من السنن الإلهية، قوله تعالى:﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ*مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ* مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾(٢).

تبقى مسألة مهمة، وهى موضوع السنن الإلهية الاطراديه، وهو لا شك ما يتعلق بالإيجاد أو الإعدام، وتجرى به الأحكام الإلهية التى استقر عليها أمر القضاء وجاءت بها المشيئة الربانية فكون السماوات سبعا وكون الأرضيين سبعا، فوقوع التطابق بين أعدادها الفردية، حتى تصير زوجيه يمثل جزءا من موضوع السنن الإلهية الاطراديه، قال تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(٣).

يذكر العلامة الرازى فى معنى الآية الكريمة أن العلم الإلهى فى خلق السماوات والأرضين على سبيل التماثل، إنما أريد به إعلامكم أنكم إذا تفكرتم فى خلق السماوات والأرضين وما جرى من التدبير فيهما، فإن من بلغت قدرته هذا المبلغ لا يمكن أن يكون لغيره مثله قدرة ذاتية، ولا يعجزه شئ عما أراد (٤).

---

(١) سورة طه الآية ٥٥.
(٢) سورة طه الآية١٧: ٢١.
(٣) سورة الطلاق الآية١٢.
(٤) راجع للفخر الرازى– مفاتيح الغيب ج٣٠/ص٣٦ دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٠م، ط أولى

وبناء عليه فإن كل المخلوقات التى يصح إطلاق اسم الكونيات عليها، تدخل فى موضوع السنن الإلهية، وهو ما نبه إليه العلامة الزمخشرى" حين فهم هذه الآية على معنى أن الأمر الآلهى يجرى أمره وحكمه بيننا، كما أن ملكه نافذ فينا [١].

فى ذات الوقت فإن الخلق المطرد يصح أن يكون موضوعا للسنن الإلهية، ومنه انفصال الأرض عن السماء، والتحول من مرحلة الرتق إلى الفتق قال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]، والرتق هو الكتلة المتماسكة التى لا تنفصل أجزاؤها عن بعضها إلا بصعوبة[٣]، والمعنى أن السماوات والأرضين كانتا قبل الفتق كتلة واحدة، ثم أحدث الله فيها الفتق، فصارت أراضون سبعا، وسماوات سبعا، طبقا لما هو جارى فى السنن الإلهية.

وقد يقع تطبيق عملى فى البناء البيولوجى دال على هذه السنن الإلهية المطردة، يدل عليه قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٤].

ويقول العلامة الرازى: لو كان الأمر بتركيب الطبائع، لما حدث اختلاف فى الخلائق، وبالتالى فوجود دابة تمشى على البطن، وأخرى تمشى على رجليين، وثالثة تمشى على أربع، فلا شك أن ذلك كله دال على اختصاص كل واحد منها بأعضائها، وقوامها ومقادير أبدانها وأعمارها، ولابد أن يكون ذلك بتدبير مدبر قاهر حكيم[٥].

ولا يغرب عن ذى بال أن ما يتعلق بموضوعات السنن الإلهية الدائمة الإطرادية ما هو داخل فى نطاق النباتات، إذا أن بعضها معروش، وبعضها

(١) راجع للإمام الزمخشرى الكشاف عن حقائق التأويل ج٤، ص ٥٦٤، طبعة دار إحياء التراث العربى ٢٠٠١م.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٣) يراجع الشيخ: محمد بن على المكلاوى – نظرات فى سورة الأنبياء، ص ٦٥، طبعة أولى ١٩٢٧م.
(٤) سورة النور الآية ٤٥.
(٥) راجع للإمام الرازى – التفسير الكبير ج٢٤/ص١٨: ٢٠.

مفروش، ومنها ما هو صنوان، وما هو غير صنوان، ومع هذا ارتبطت السنن الإلهية بأنها جميعا تشرب من ماء واحد، وتخرج ثمرات مختلفا ألوانها، قال تعالى:﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

ولا يخفى أن أفعال الله تعالى وحكمته لا تتخلف، وهو ما نبه إليه الشيخ مصطفى صبرى" حين قال: إن الله تعالى لا تتخلف الحكمة فى أفعاله، ولا يصح أن نقول إن فعله لا يتخلف عن الحكمة، تنزيها له عن شائبة الإلجاء والاضطرار(٢).

فى ذات الوقت فأن ما يتعلق بموضوع السنن الإلهية الاطراديه، ربما يكون شاملا لنظام الكون الثابت، بحيث يصح القول بأن جميع الثوابت، إنما هى سنن إلهية، ولذا قال العلماء: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق (٣).

لا يكفى القول بأن حقائق الأشياء ثابتة نظريا، كسنة إلهية، وإنما هى ثابتة عمليا من الناحية التطبيقية، فالحجر هو الحجر، والبحر هو البحر، واليابس هو اليابس، وكما سبقت الإشارة إليه، إذا حدث نوع من التعديل المؤقت، أو التغيير النوعى، فإنما يكون ذلك لحكمة أخرى، وسنة غير مطردة.

وقد حاول الكثيرون تأمل السنن الإلهية على صورها ومظاهرها العادية، ثم انتهوا منها إلى التعرف على رب البرية، بطريقة بعيدة عن القضايا النظرية(٤).

---

(١) سورة الرعد الآية ٤.

(٢) الشيخ: مصطفى صبرى – موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج ٣ ص ٥ مكتبة الإمام بالقاهرة ١٩٩٠ م.

(٣) لم ينكر هذا سوى السوفسطائيين الذين قالوا: لا توجد حقيقة ثابتة، وإنما الحقائق نسبية مردها إلى الإنسان، وبالتالى هو الحكم فيها، والمعول عليه بشأنها – راجع للشيخ محمود عوض الله طه – الفلسفة اليونانية ص ١١٢، ١١٣ ط أولى ١٩٤١م، وراجع فى الفكر السوفسطائى للدكتور: عوض الله جاد حجازى– فى تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦٨، ٦٩، ومعه الدكتور محمد السيد نعم.

(٤) راجع لكرسى موريسون –العلم يدعو للإيمان، حيث ذكر آراء علماء النبات فى هذه المجريات الكائنة فى النباتات، وانتهى منها إلى أنها على صورها ومظاهرها تدل دلالة

ومما لا شك فيه أن ما يتعلق بموضوع السنن الإلهية، لا يكون قابلا للحصر، بحيث يكون واقعا فى نطاق البحث المعرفى نظرا؛ لأن القاعدة العامة حينما تطبق فلا تفيد حصر ملك الله، وإنما يفيد التعرف على جزء مما خلق الله، والفرق بينهما يعبر عن المساحة الواسعة بين سلطان الإنسان المخلوق، وقدرة الواحد الديان الخالق.

يدل عليه أن القضايا العلمية تقبل الاحتمالات، وتدخل فى نطاق الحصر، أما ما خلق الله تعالى فأنه لا يحصر، ولا يحد، وفوق ذلك، فأنه يعبر عن فعل من أفعال الله، وأفعال الله لا تحصر، وإنما يسعى ذوو العقول للتعرف عليها، طبقا لما دعتهم الآيات القرآنية للقيام به، يدل عليه قوله تعالى:)قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ([1].

يقول العلامة البيضاوى: تفكروا ماذا في السماوات والأرض من عجائب صنعه، لتدلكم على وجوده تعالى ووحدانيته وكمال قدرته، ثم انظروا فى علم الله تعالى وحكمته، فلن تصلوا إلى حقائق الأشياء إلا من خلال ما جاء من عنده جل شأنه [2].

أما العلامة الشوكانى فقد نظر للآية من منظور آخر، قال لما بين ﷻ:أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، وبناء عليه أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، وليس المراد بالنظر مجرد حركة العين، وإنما التفكير والاعتبار [3] حتى يصل المرء العاقل الواعى إلى المعرفة الصحيحة بالإله الواحد القهار.

قوية على وجود الخالق –جل علاه، راجع للأستاذ محمد فريد وجدى – الإسلام فى عصر العلم، وللدكتور محمد أحمد الغمراوى – الإسلام فى عصر العلم.

(١) سورة يونس الآية ١٠١.

(٢) راجع للعلامة البيضاوى – تفسير البيضاوى ج ٣ص ٢١٦ وهو يسعى لتفسير كلمة ماذا فى قوله تعالى"قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ " فيقول أنها إن جعلت استفهامية جاءت معلقة على كلمة انظروا ومرتبطة بالعمل،ط: دار الفكر – بيروت.

(٣) راجع للعلامة الشوكانى – فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج ٢ ص ٤٧٦ ط دار الفكر – بيروت

ولما كان ملك الله تعالى لا يحد، فقد جاء النظر والاعتبار فى جزء مما تمت الإشارة إليه بحيث يصل الإنسان الواعى إلى درجة الاعتبار، يقول الشيخ أبو الروس: قل يا محمد تفكروا واعتبروا بما فى السماء والأرض من المصنوعات، الدالة على الصانع، وكمال وحدانيته، وتمام علمه وقدرته، حيث يستفيد أهل الإيمان، أما غيرهم فلن يجدى ذلك معهم شيئا [١].

غير خاف أن هذا التوجيه الربانى بالنظر فى الملكوت ليس المقصود به بيان الحصر، وإنما المراد به الالتفات إلى شئ من سنن الله الإطرادية، وبخاصة ما يتعلق بالكونيات التى تعرف بأنها " كل حقيقة من حقائق الكون موجهة توجيها كليا، بحسب قانون ثابت لا يقبل الخداع "[٢].

وإذا انتقلت إلى أن الكون هو العالم الذى لا يحد بالمكان ولا بالزمان، وإنه من فعل الله تعالى، وأن أفعال الله لا نهائية، فأن الأمر يكون ذا وقد اعترف بذلك أصحاب النزعة المعرفية القائمة على النسبية، فيقول اينشتاين": إن أول ما يتبادر إلى الذهن معرفته هو أن الكون من حيث الزمان، والمكان لا نهائى، بدليل وجود نجوم فى أجزاء الفضاء بحيث تصبح كثافة المادة واحدة فى كل الفضاء، ولم يتوصل العلم إليها بالجملة [٣].

وفى تقديرى أن موضوع السنن الإلهية المطردة يمكن أن ينال الحتمية؛ باعتبارها موضوعا معرفيا، فإذا انتهى إلى ذلك الحد؛ أمكن القول بأن السنن الإلهية تجئ منها الحتمية الدينية على ناحية من النواحى، وما دامت إلهية فلا مانع من قبولها، ويكون المحتوى الحوارى بين العلماء قائما فى الاستعمال اللغوى، أو المنطوق النقلى.

ولا يخفى أيضا أن هناك علاقة ارتباطية بين السنن الإلهية، والقوانين الكونية، والاجتماعية، والاقتصادية على ناحية من النواحى؛ يمكن الإلماح إليها فى بعض النقاط التالية:-

---

(١) الشيخ محسن سالم أبو الروس – نظرات فى كتاب الله ص١٢٥ ط أولى ١٩٢٤ م.
(٢) جون كيمنى– الفيلسوف والعلم ص ٢٧١ ترجمة الدكتور أمينة الشريف المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٥م.
(٣) ألبرت اينشتاين – النسبية النظرية الخاصة والعامة ص ١٦٣ ترجمة الدكتور رمسيس شحاته –الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م.

المظهر الأول: قانون الإيمان:

المراد بقانون الإيمان، الفطرة التى خلق الله الناس عليها، وهو منطق قائم فى الجميع دون استثناء، يدل عليه قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ([1])، وقوله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[2].

فقانون الإيمان بالله رب العالمين الواحد الأحد، الفرد الصمد قانون كونى، وهو فى ذات الوقت سنة إلهية مطردة، يدل عليه قوله (ﷺ):"ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ "، ثم فى قوله تعالى:﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ويعتقد "بلانت" إن هذا القانون السارى فى جميع الكائنات إنما هو قانون كونى؛ نظرا لشموله كل أجزاء الكون، وسنة إلهية من حيث أنه فعل إلهى، فيقول أجل أنا مؤمن بأن كل ما فى الكون يتناغم تحت وحدة إيمانية واحدة، ترتبط بكل جزئيات هذا الكون ارتباطا عضويا وثيقا [4].

وينقل كثير من أهل العلم هذا القانون الإيمانى تحت إطار فطرى يحقق السعادة لكل المؤمنين بالله رب العالمين، وفى نفس الوقت يرتب الشقاوة على كل من يرفض هذا الإيمان، يقول الجوهرى: إن كبرى سنن الله قائمة فى وحدة الإيمان بالله، فمن أمن بالله سعد، ومن لم يؤمن بالله هلك فى الدنيا، وشقى فى الآخرة إن الإيمان بالله هو روح الفرد وروح الجماعة، ونور الحياة، إنه كالهواء تماما لحياة الإنسان نفسيا وجسديا [5].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(٢) سورة الروم من الآية ٣٠.
(٣) الإمام البخارى – صحيح البخارى، ج١/ص٤٥٦، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه، ح ١٢٩٢ دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ط الثالثة، تحقيق الدكتور: مصطفى ديب البغا.
(٤) انطوان بلانت – الإيمان من منظور باحث جيولوجى ص ٣٥؛ ترجمة وفاء صابر ١٩٦٥ م.
(٥) الإمام حامد الجوهرى – هذا خلق الله ص ٢٩ كتاب التعاون ط الأولى ١٩٩٣ م.

وينقل الدكتور الدمرداش سرحان عن كثير من العلماء شهادات وثائقية على وحدة الإيمان منها ما ذكره " جورج بلونت " الذى قال: إيمانى بالله جزء من صميم حياتى اليومية، وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، والعقل يدعو للإيمان(١).

إذا قاعدة وحدة الإيمان سنة إلهية، وقانون كونى، ولكنه ليس حتميا، بدليل أن كثيرين خالفوا الفطرة، وخرجوا على أحكام العقل السليم، وكفروا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وبناء عليه تكون العلاقة بين السنن الإلهية، وقانون وحدة الإيمان ليست على سبيل الإطراد من ناحية الممارسة، ولكنها على سبيل الإطراد من ناحية التبليغ، وهذا الفرق مهم جدا لمن تأمله.

المظهر الثانى: وحدة الخلق:

جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن يكون خلق كل كائن مما يصلح به أمور معاشه، ومعاده، فالإنسان خلقه الله مرفوع القامة، وأفراده يسيرون على قدمين؛ قال تعالى﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢).

ولا شك أن خلق الله تعالى هذا الإنسان فى أحسن تقويم؛ مطابق للواقع الذى نعيشه(٣)؛ فهو يتناول طعامه بيديه، ويفكر بعقله، وله مواصفات تتعلق بخلقه من ناحية الجلد والشعر، وما شابه ذلك، وبه امتياز عن باقى مشاركاته فى الحيوانية؛ من الماعزية والفرسية والبقرية والغنمية، وغيرها، وذلك مما يدل على تكريم الله للإنسان، قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"(٤).

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم – نخبة من العلماء الأمريكيين، مقال جورج هيربرت بلونت – تحت عنوان منطق الإيمان ص ٨٠ –٨٤ ترجمة الدكتور الدمرداش عبد الحميد سرحان ط إحياء دار الكتب العربية – عيسى الحلبى.

(٢) سورة التين الآية ٤.

(٣) بعض ذوى الناس قد يخلقون على ناحية فيها صورة من صور القصور ظاهريا، كمن لا يسيرون على قدمين، أو من ينبطحون على الأرض، وذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله، ولا تمثل أعدادهم سوى أنماط قليلة من جملة الأعداد الكثيرة.

(٤) سورة الإسراء الآية ٧٠.

ولا يخفى أن أمر هذه المشيئة الإلهية واضح فى قانون وحدة الخلق، وقد نبه إلى ذلك الكثير من العلماء؛ بدليل أن الإنسان من صفاته الأساسية النطق، والتفكير، والملائمة، ونظرا لمحاولة الشهوة الموجودة فيه السيطرة على العقل، فقد بعث الله إليه الرسل، ولا يفترق إنسان عن إنسان فى قبوله للهدى، أو الضلال، فالكل قد خلق قابلا لهما معا، قال تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا" [(١)].

ولعل الشاهد فى الآية الكريمة أن الإنسان خلق على ناحية مستقلة، وقد نبه الإمام الرازى إلى أن كل ذى روح غير الإنسان خلقه الله تعالى منكبا على وجهه، أما الإنسان فأنه خلق مديد القامة، كما يتناول مأكولة بيده. [(٢)]

وهذه السنن الإلهية الناتجة من وحدة الخلق؛ معبرة أصدق تعبير عن مظهر إيماني؛ لا يوجد مثله فى غير الإنسان، ولا يمثل مظهرا حتميا، إنما يمثل سنة إلهية، وقانون الاستثناءات يوحى بذلك كله، فلو كانت العمليات التى خلق عليها الإنسان غير واقعة فى نطاق قبول شئ من الإستثناء، ربما توهم متوهم أن الطبيعة هى التى فعلت ذلك، بدليل أنهم جميعا جاءوا على تصنيف واحد، ومما يؤكد أن وحدة الخلق تساهم فى التعريف بالله، وتفرز السنن الإلهية الاطرادية فى شكلها العام قوله تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾[(٣)].

فاختلاف الألسنة الناطقة وغير الناطقة فى قانون وحدة الخلق، واختلاف الألوان من الأبيض والأسود وغيره من المعالم الدالة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكاشفة فى ذات الوقت عما يجب له جل علاه من كافة النواحى، فما هى السنن الإلهية الاستثنائية ؟ ذلك ما سوف أتناوله فيما يلى إن شاء الله تعالى.

ثانيا:السنن الإلهية الاستثنائية: تعريفها، موضوعها، غايتها:

وتعرف بأنها ما تجئ من الله تعالى فى حالات بذاتها خرقا لعادة قائمة، وذلك كانفجار الماء من الحجر معجزة لسيدنا موسى(ﷺ) وقد دل على ذلك

(١) سورة الإنسان الآية ٢.
(٢) الإمام الرازى– مفاتيح الغيب م ١٦ ج ٣٢ ص ١١.
(٣) سورة الروم الآية ٢٢.

الدليل النقلى من القرآن الكريم فى قوله تعالى:)وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

فمن المعروف أن الحجر إذا ضرب خرج منه شرر، أما أن يضرب فيخرج منه ماء، فذلك مخالف لما هو عليه ذلك الحجر، وكذلك نطق الجمار، والعجماوات، فالعجماوات قد خلقها الله -ﷻ- غير ناطقة بلسان عربى مبين، فإذا نطق هذا الجماد شاهدا بنبوة سيدنا محمد-ﷺ - فلقد دل الأمر على أن ذلك سنة إلهية، ولكنها ليست اطراديه، ولذا سميت استثنائية، لأن العادات التى تمر بها تكون قليلة بالنسبة لأفرادها [2].

كذلك جرت سنة الله فى العادات أنه إذا اقترب جسم قابل للاحتراق من مادة فيها الإحراق، فإن هذا الجسم يحترق، لكن خليل الرحمن إبراهيم- عليه السلام - القوه فى النار، ومع أنه جسم قابل للإحتراق، والنار من طبيعتها الإحراق، إلا أن الله تعالى أوقف عملها، فلم تحرق خليل الرحمن، وقص ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[3].

ومن ثم فإن السنن الإلهية الاستثنائية فعل من أفعال الله تعالى، ليس على سبيل الإطراد، وإلا كانت سنة عادية، وإنما هى على سبيل الاستثناءات الربانية، ومن ناحيتها تجئ المعجزات، وخوارق العادات، لأنها تجئ على أنها أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالى، ومن ثم قسم العلماء خوارق العادات إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوارق التأييد:

وهى التى تكون مع الأنبياء، على سبيل الارهاصات[4]، أو المعجزات[1]، وتكون مع الأولياء على سبيل الكرامات [2]، والفراسات[3]،

(١) سورة البقرة من الآية ٦٠ ؟
(٢) ليس هناك حجر أخر ضرب بالعصا فخرجت منه أثنتا عشرة عينا،سوى الحجر الذى ضربه سيدنا موسى عليه السلام بأمر الله، فيكون هذا الحجر على تلك الحال مستثنى من باقى الأحجار مع ذات النبى.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٦٩.
(٤) أمر خارق للعادة يجريه الله على يد من سيكون نبيا تأسيسا لدعوته، وإعلانا بأنه سيكون نبيا أن شاء الله تعالى كإظلال الغمام لسيدنا محمد -ﷺ-وشق صدره إلى غير ذلك من

والمعونات(٤)، والمغوثات (٥).

وهذه المجموعة كلها نوع من خوارق التأييد، مما سبق بيانه ظهر أن بعضها يتعلق بإظهار المنزلة، وبعضها يجرى كشفا لغيب، أو تفريجا لكرب، وبعضها قد ياتى تخليصا من شدة، كل ذلك تفضلا من الله، ورحمة، وهو أمر خارج عن السنن الإلهية الاطراديه إلى السنن الإلهية الاستثنائية التى يراد بها التأييد.

النوع الثانى: خوارق الإهانة والسخرية:

الوجوه التى وقفت على تلك الناحية، راجع للعلامة محمد بن الأمير – حاشية الأمير على شرح اللقانى ص ١٦٨، وكذلك للإمام التفتازانى – شرح المقاصد، وكذلك شرح المواقف للشريف الجرجانى حيث تم تناول تلك الأجزاء على ناحية تفصيلية.

(١) أمر خارق للعادة يجريه الله على يد النبى تصديقا له فى دعواه فى زمن التكليف مع عجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله، وأن يكون ذلك قبل زمن نقض العادات،راجع للعلامة عضد الدين الايجى – المواقف فى علم الكلام ص ٣٣٩ ط عام الكتب بيروت.

(٢) هى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد العبد الصالح إظهارا لمنزلته بين الناس كتكثير الطعام الموجود فى غير أوانه، وكما حصل مع العبد الصالح الذى أتى بعرش " بلقيس" ملكة سبا فى قوله تعالى: "قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" سورة النمل الآية ٤٠.

(٣)أمر خارق للعادة يكشف الله به للعبد الصالح عما فى قلوب الآخرين، وفى الأثر" اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فإنه يَنْظُرُ بنورِ اللَّهِ "الإمام الطبرانى– المعجم الكبير ج٨/ص١٠٢ح ٧٤٩٧مكتبة الزهراء – الموصل – ١٤٠٤ – ١٩٨٣ط ثانية، تحقيق: حمدي بن = =عبدالمجيد السلفي.الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص ١٦٨ ط صبيح، والفراسات أنواع منها إيمانية وهى محل حديثى، ومنها رياضية وهى التى تتعلق بالمهارات الفردية كالعدو السريع وحمل الأثقال من المتدرب عليها وركوب الخيل، ومنها علمية وهى التى تتعلق بالأمراض ومعرفتها فأنها فراسة علمية، ولا تتعلق بالإيمان، أو المعصية.

(٤) أمر خارق للعادة يجريه الله على يد العبد الصالح تخليصا له من شدة وقع فيها، بحيث تبدو منزلته بين الناس، كالحال مع عباد الله الصالحين الذين وقعوا فى ضائقة فأعانهم الله وخرجوا منها، راجع للشيخ محمود خالد عبد البصير – من أنوار القرآن ص ٨٥، ٨٦، وراجع للشيخ مصطفى الحديدى من أقداس القرآن ج ٢ ص٤٨، ٤٩.

(٥)أمر خارق للعادة يجريه الله على يد العبد الصالح استخلاصا له مما وقع فيه استجابة لدعواه بحيث يكون فى الناس علامة على قبوله لدى مولاه راجع للشيخ عبد البديع محمود أبو الوفا –خوارق العادات بين الدين والفلسفة ص ٩٨،٩٩ ط أولى ١٩٤٣.

وهذا مما يترتب عليه إسقاط العبد واستنزاله، وتلك الخوارق فى جملتها إما أن تكون إهانة [١] كالحال مع مسيلمة الكذاب الذى تفل فى عين الأعور لتبرأ فمرضت السليمة، وتفل فى بئر به ماء كثير ليفور فغاض.

ومنها ما ياتى على سبيل الاستدراج[٢] كالحال مع فرعون موسى، حينما قال: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ [٣]، ثم ألقى بمقذوفه فى الهواء، فنزل ملوثا بالدم، فزعم أنه قتل إله موسى، فكان ذلك استدراجا له، وإهانة، ولما كانت الإهانة تقع فى الغالب مع مدعى النبوة الكذاب فأنها تجئ غير مرادة منه، كمالا تكون تأييدا له، وإنما تكذيبا، فإن الاستدراج يأتى مع مدعى الألوهية فضحا لموقفه وكشفا لغايته.

وسميت خوارق إهانة مع أنها سنن إلهية، لكنها ليست مطردة، بدليل جريانها فى أفراد قليلة، وعلى غير مراد أصحابها الذين يزعمونها.

<u>النوع الثالث: خوارق التعليم، والتعلم:</u> وهو السحر، وعرف بأنه أمر خارق للعادة يعتمد على خفة يد صاحبه، وقدرته على خداع الآخرين[٤].

ولما كان السحر لا يغير حقائق الأشياء، فقد بات المتمكن منه لاعبا به وهو من حيث جريانه على يد القائم به المتمكن من علمه سنة استثنائية من حيث أن الله تعالى أجرى ذلك على يدى الساحر لكنه فضحه، يدل عليه قوله تعالى: " وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

(١) وهى جريان أمر على غير العادة، وعلى غير مراد مدعيه إهانة له واستنزالا لمنزلته – راجع للإمام القرطبى – الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ج ٢ ص ١٤٩ تحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا ط دار التراث.

(٢) وهو أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد مدعى الألوهية، بحيث يسقط أمره، ويكذب الناس حاله – راجع فى هذا الشأن حاشية العلامة الباجورى على شرح اللقانى، وراجع تحقيق المقام شرح منظومة عقيدة العوام.

(٣) سورة القصص الآية ٣٨.

(٤)الشيخ عبد الرحمن الجزيرى – الفقه على المذاهب الأربعة م ٥ ص ١٨، ١٩.

السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى "[١]، وقوله تعالى: " قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [٢].

مما سبق بيانه أتضح أن السنن الإلهية الاستثنائية لها وجود واقعى، ولها غاية وحكمة ربانية، لا تنفصل عنها، وهذا مما يؤكد أن موضوع السنن الإلهية الاستثنائية، إنما يكون قائما فى خوارق العادات، وقد دلت عليه الظواهر النقلية من الكتاب والسنة، فمن القرآن الكريم ما ورد بشأن إحياء الله الموتى لسيدنا موسى –عليه السلام– من قوله تعالى:" فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى "[٣]، وقوله تعالى: " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ "[٤]، وقوله تعالى: " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ "[٥]، والعادة أن العصا جمار، لأنها فى بقية أغصانها تكون نباتا، إذا كانت الماء تسرى به، إما إذا انقطع عنه الماء، أو انقطع هو عن بقية الأغصان فلقد صار جمادا، وقد جرت سنن الله الاطراديه أن الجماد لا ينطق، ولا يتحرك بحركة ذاتية، فإذا نطق، أو تحرك بحركة يدركها الآخرون، فقد بان أن ذلك ليس سنة اطراديه، وإنما هو سنة استثنائية.

وكذلك من السنن الإلهية، أن الحجر إذا ضرب بآلة حادة يخرج منه نار، أو شرر، أما أن يضرب فيخرج منه الماء، فذلك سنة إلهية استثنائية، وليست اطراديه، بمعنى أنه ليس كل حجر يضرب بآلة حارة فيخرج منه ماء.

كذلك جرت سنة الله تعالى أن البحر إذا ضرب أخرج ماءا، أو رزازا، أما أن يضرب البحر بالعصا فيتحول إلى طرق يابسة بعدد جماعات المارين، فذلك من السنن الإلهية الاستثنائية، يدل عليه قوله تعالى: " فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ "[٦].

(١) سورة طه الآية ٦٩.
(٢) سورة الأعراف الآية ١١٦.
(٣) سورة طه الآية ٢٠.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٠٧.
(٥) سورة النمل الآية ١٠.
(٦) سورة الشعراء الآيات ٦١: ٦٣.

من ثم تبين أن العلاقة بين السنن الإلهية الاطراديه، والأخرى الاستثنائية إنما هى علاقة ارتباط الفعل بالفاعل، ارتباط المخلوق بالخالق، مع قدرة الخالق العظيم جل علاه على تصريف الأمور طبقا لحكمة عليا، وميزان ثابتا.

بناء على ما سبق يكون موضوع السنن الإلهية الاستثنائية، هو خوارق العادات المتعلقة بالتأييد لأولياء الله، أو الإهانة، والاستدراج لأعدائه، وقد جرت سنن الله فى خلقه أن تكون الاستثناءات ممنوحة لأوليائه عن طريق الكرامات، والمعروف أن كرامات الأولياء إنما هى امتداد لمعجزات الأنبياء[1]تفضلا من الله تعالى.

علاقتها بالقوانين المختلفة:

من الواضح أن السنن الإلهية الاستثنائية ليست خارقة للعقل، ولكنها خارقة للعادة، أما لماذا، فلأنها لو كانت خارقة للعقل لكانت هناك حجج كثيرة لمن يرفضها، ولذلك ذكر الشيخ مصطفى صبرى: أن كل ما يتعلق بخوارق العادات له مجرى فى السنن الإلهية، نظرا لارتباطه بالعادة الإلهية، وليس بأحكام العقل [2]، فلو خرقت أحكام العقل لكان العقل بحاجة إلى عقل أخر، حتى يدركها، ويتسلسل الأمر.

ربما يقال إن القوانين الكونية ضابطة، فإذا جاءت السنن الاستثنائية ناقضة، فقد أفسدت القاعدة الكلية التى فطر الله الناس عليها، والجواب أن السنن الاستثنائية لا تخرق قانونا ضابطا، وإنما تخرق عادة جارية، وخرق العادة أمر مترتب على سنن إلهية أخرى، وليس مترتبا على قانون حتى يسقطه، وتلك مأساة الطبيعيين الذين ينكرون خوارق العادات، ويكفرون بالمعجزات [3].

(١) راجع للعلامة القشيرى – الرسالة القشيرية فى علم التصوف ص ٢٦٨، ٢٦٩، حيث تناول هذه الجوانب، وكذلك عوارف المعارف للعلامة السهروردى، ولمزيد من التفصيل حول هذه الكرامات راجع للشيخ إسماعيل النبهاوى– جامع كرامات الأولياء،حيث تناولها طبقا لما وقف عليه من أدلة رجحت عنده.

(٢) راجع للشيخ مصطفى صبرى – موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج ٢ ص ١٢٤، ١٢٥، وكذلك ج ٣ ص ٦٧، ٦٨.

(٣) الدكتور سليمان دنيا – التفكير الفلسفى الإسلامى، أثناء مناقشاته الهادئة مع الوضعيين من المناطقة، وأصحاب الوضعية الطبيعية، حيث ناقشهم وبين أوجه بطلان أقوالهم.

فمثلا القانون العلمى القاضى بأن حقائق الأشياء ثابتة، هو ذاته يعترف بوجود استثناءات على سبيل البحث المعرفى، ففى المجال البيولوجى انتهى البحث المعرفى إلى وجود أنواع من الكائنات لا تحتاج عملية التلقيح فيها إلى الحمل داخل الرحم، كالأسماك مثلا، فإنها لا تحمل فى رحم، وإنما تتولى إلقاء البيض، ثم يتم التسكين عليه من قبل الذكر، حينئذ ينتشر نوع السمك بأذن الله، وكذلك ذكروا أن هناك نوعا من الطيور، ظهر فى واحدة من حالاته، وجود عملية تجانس من غير تلقيح ذكرى، وعرف ذلك باسم البويضة العذراوية.(١)

وذكر أيضا الدكتور موريس بوكاى: أن العلم البيولوجى أثبت وجود تلك البويضة العذراوية بالنسبة لمريم أم سيدنا عيسى– رضى الله عنها، وبالتالى فلم تكن بحاجة إلى حيوان منوى ملقح، وهو الذى جاءت الإشارة إليه بقوله تعالى: " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (٢) وقوله تعالى: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ"(٣).

ويعقد موريس بوكاى مقارنة هادفة ينتهى منها إلى تكذيب المدعين بأن عيسى ابن الله نظرا لوجود أمه، وعدم وجود أبيه من جنس أمه، ويؤكد أن التلقيح العذراوى إنما هو سنة إلهية استثنائية، تجرى حكمة ربانية (٤).

كما أن موضوع السنن الإلهية الاستثنائية لم يقف عند مجال البيولوجيا وحدها ولا فى عالم النبات وحده، بل امتد إلى الكونيات، فقد ورد أن الرسول-ﷺ – فى ليلة الإسراء والمعراج قد رأى ما رأى، فلما كان الصباح، واخبر قومه بما رأى، وأن عيرا لهم ستدخل قبل غروب الشمس واستبطأ القوم القافلة، جاء

(١) الدكتور محمد مصطفى الفولى – بعض مظاهر التقدم فى العلوم البيلوجية ص ١٤٥، ١٤٦ ط دار المعارف ١٩٦٣ م.
(٢) سورة النحل الآية ٤٠.
(٣) سورة آل عمرآن الآية ٥٩.
(٤) موريس بوكاى – القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ٢٤٥، ١٠٨ ط ثانية ٢٠٠٤ م مكتبة مدبولى، وط المكتب الإسلامى ط الثالثه ١٩٩٠ ترجمة الشيخ حسن خالد، وراجع الدكتور محمد مصطفى الفولى بعض مظاهر التقدم فى العلوم البيولوجيه ص١٦٥، وقد نبه الشيخ رشيد رضا إلى هذا الاتجاه العلمى فى كتابه الوحى المحمدى أثناء حديثه عن كيفية خلق الله تعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب.

أمر الله تعالى للشمس أن تبقى فى مكانها حتى دخلت القافلة [١]، وذلك تصديقا لرسول الله -ﷺ -.

فإذا ما انتقلت من تلك الصور إلى أخرى، تتعلق بعملية النطق، تبين أن الجمادات كان لها نطق خاص، بدليل أن رسول الله -ﷺ – كان إذا وضع الحصى فى يده سبح، وكان -ﷺ – يقول عن منطقة بمكة بذاتها: ما مررت على حجر أو مدر إلا سلم على[٢]، وبالتالى تكون كل عمليات خوارق العادات مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوانيين الكونية على الناحية الاستثنائية التى يعترف بها العلماء أنفسهم، وتبدو هذه المسحة التاملية فى كل ما يتعلق بخوارق العادات من الناحية التفصيلية.

ومما يلفت النظر أن الذين ينكرون خوارق العادات هم الذين ينكرون السنن الإلهية، ويعتقدون أنه لا توجد سنة إلهية، رائدهم الإلحاد، وطبيعتهم الوقوع فى المهالك، يدل عليه أن البعض منهم ذهب إلى إعلان الإيمان بقضايا العلم، والكفر بما وراء ذلك، فإذا تحدث كان المراد لديه العلم التجريبى وحده، واعتقاده فيه.

بل إن بعضهم ألف كتبا كثيرة حول هذا الشأن، وبعضهم تولى الكتابة فى الصحف لفترات طويلة، وكان يوجه الرأى العام من خلال تلك الأفكار التى لا تعترف بالسنن الإلهية على أية ناحية كانت [٣].

---

(١) راجع للإمام ابن تيمية – الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح م ٢ ج ٤ ص ٣٦٥: ٣٦٧، وقد ذكر ذات المسألة الإمام القرطبى – الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام، وذكر أن الشمس حبست عن الغروب مرتين للرسول -ﷺ –ج١/ص٣٥١ دار التراث العربي – القاهرة – ١٣٩٨، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا.

(٢) نقل هذه بتفاصيلها السيد الشريف الجرجانى فى حاشيته على شرح المواقف، وكذلك تحدث عنها الإمام الغزالى فى كتابه الاقتصاد فى الاعتقاد، أثناء الحديث عن معجزات سيدنا محمد -ﷺ -.

(٣) كتب أحدهم كتابا تحت عنوان خرافة الميتا فيزيقا، أعلن من خلاله إنكاره للألوهية،وما يتعلق بها من كافة النواحى،ولما هاجمه العلماء ومنهم الدكتور: سليمان دنيا فى كتابة التفكير الفلسفى الإسلامى، الدكتور: محمد البهى فى كتابة المجتمع الإسلامى المعاصر، أ: أنور الجندى فى كتابة نحو العقيدة الإلهية غير أسم الكتاب إلى عنوان آخر هو نحو فلسفة علمية،والمادة العلمية هى هى والموضوع هو هو، وقد أعلن فى صدر صفحات كتابه الأخير أنه غير العنوان ليرضى هؤلاء العوام.

وفى تقديرى أن كل سنة إلهية استثنائية توجد لها صور تطابقية فى القوانين الكونية العلمية النظرية، والأخرى التطبيقية العملية، ومن الشواهد على ذلك ما يلى:

١ – قانون وحدة الإيمان:

بينت آيات القرآن الكريم أن بعض الناس طبع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى لو رأوا العذاب الأليم، كالحال مع أبى لهب قال الله تعالى: " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ" (١)، فتلك سنة إلهية استثنائية أخبر بها القرآن الكريم قبل أن يموت أبو لهب، ومات أبو لهب على ما أخبر القرآن الكريم، فكان إخباره إعجازا قرآنيا، وكان موت أبى لهب على تلك الناحية سنة استثنائية.

وكذلك الحال مع الذى آتاه الله العلم، ثم انقلب، إذ كان الشأن به التمسك بما جاء من عند ربه، لكنه خرج على قاعدة الإيمان إلى قاعدة الكفران، والله تعالى قضى خبره فقال:" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (٢).

وكذلك الحال مع ذلك الذى كان يصلى خلف النبى-ﷺ – وسأله أن يدعوا الله له حتى يكون كثير المال، وقد جرت السنن الإلهية أن من أعطاه الله مالا شكرا لله، أو من كان يطلب وأعطاه شكر الله، غير أن هذا نقض كل ما عاهد الله عليه، فكان موقفه بعيدا عن قاعدة الإيمان، وذكره الله فى القرآن الكريم فقال: " وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ *فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٣).

والذى أطمئن إليه أن قانون وحدة الإيمان الفطرية، يمكن أن يقع فيه نوع استثناء على طريق السنن الإلهية أيضا، وتكون القاعدة فى نطاق العبرة

(١) سورة المسد الآيات ١: ٥.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٥.
(٣) سورة التوبة الآيات ٧٥:٧٨.

بالخواتيم، ودعاء الرسول -ﷺ – " اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة، ولا تختم لنا بخاتمة الشقاوة " وبيان صاحب المنزلة الذى يفوز عند خروجه من الدنيا، برؤية مكانه فى الجنة.

كما أن المظهر التطبيقى لقانون وحدة الخلق تأتى فيه السنة الإلهية الاستثنائية أيضا، بدليل أن بعض الناس قد يخلقون بأطراف زائدة، فمنهم من يخلق بأكثر من ذراعين، أحدهما زائد، وللفقهاء فى كيفية التعامل معه من ناحية الوضوء آراء فقهية، وبالتالى يعد وجود هذا الخلق بذات الصورة سنة إلهية استثنائية(١).

ولو لم تكن هذه الزوائد من السنن الإلهية، ولحكمة ربانية لقطعها الناس، وترتب عليها فوات مصالح أو موت أصحابها، وكذلك ظهور أفراد ليسوا مرزوقين من ناحية الذرية، فمع كمال أجسامهم، وصحة أبدانهم وسلامة فضلاتهم إلا أنهم لا يرزقون، وقد دل على ذلك قوله تعالى: " لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ *أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ "(٢).

وإذا تحدثنا عن قوانين كونية تتعلق بالحرارة والبرودة مثلا، فإننا نجد من السنن الإلهية الاستثنائية ارتفاع درجات الحرارة فى بعض أيام الشتاء، دون سبب ظاهر على ناحية علمية، وإنما جاء خرقا لعادة قائمة، لكننا من الناحية الشرعية نقر أن هذا الارتفاع للحرارة فى غير أوانها من السنن الإلهية، وكذلك ظاهرة سقوط الأمطار صيفا على مناطق غير مأهولة، فالقوانين العقلية والعلمية لا تجد لها تفسيرا واضحا، ولا سببا معروفا، كل ما يستطيع العلماء قوله أنها ليست ظاهرة، أو يدعى أنها ظاهرة غير قائمة على الدوام، وإنما هى مستجدة.

وقد نبهت آيات القرآن الكريم إلى بعض تلك المظاهر، بقوله تعالى: " هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ* وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ

(١) الإمام السيوطى رحمه الله تناول هذه الجوانب على نواح تفصيلية فى كتابه النظائر والأشباه فى فروع فقه الشافعية، وذكر الآراء الفقهية، واجتهادات العلماء بهذا الشأن.
(٢) سورة الشورى الآيتان ٤٩، ٥٠.

وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ"[1].

يقول الشيخ البروسوى: إن الله -ﷻ- يريكم البرق الذى يلمع من السحاب، إخافة من الصاعقة وخراب البيوت، وإطماعا فى الغيث، ورجاء البركة، لان المطر يكون لبعض الأشياء ضررا ولبعضها رحمة فيخاف منه المسافر ومن فى خزينته التمر والزبيب بينما يطمع فيه المقيم، وأهل الزرع والبساتين بل إنه -ﷻ- ينشئ سحابا جديدة محملة بالماء فى غير أوان لحكمة يعلمها رب الأنام [2].

ولا يخفى أن ما يتعلق بالسنن الإلهية الاستثنائية، والقوانين العلمية فيه ترابط واضح من ناحية التطبيق العملى، بناء على قاعدة سبقت الإشارة إليها، وهى أن الشريعة مرتبطة بمصالح العباد، وحيث كانت المصلحة تبقى شريعة الله.

ربما يقال إن السنن الاستثنائية تخالف قانون الانضباط الكونى ومعناه أن سنة إلهية تعارض سنة إلهية، والجواب أن قانون الانضباط الكونى تم بناؤه على تفهم السنن الإلهية المطردة، فإذا تم التعامل مع هذا القانون على السنن الاستثنائية بان أن الأمر يحتملهما معها، ولا يخرج عنهما بحال، أما لماذا؟

فلأن قانون الانضباط الكونى قائم فى ارتباط جميع ما فى الكون العلوى والسفلى بالحكمة والتدبير، وبناء عليه فإذا دخلت السنن الإلهية الاستثنائية إلى هذا الجانب فالمعيار هو جريان الحكمة والتدبير، يدل عليه ما ذهب إليه الأستاذ: وحيد الدين خان": من أن حجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس لدرجة حرارة ثابتة وأشعة باعثة للحياة إلى غير ذلك ما يدل على خروج النظام

(١) سورة الرعد الآيتان ١٢،١٣.
(٢) العلامة الشيخ إسماعيل الحقى البروسوى، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، المجلد الثانى، ص ٢٥، تحقيق الشيخ محمد على الصابونى، طبعة دار الصابونى الأولى، ١٩٨٨م.

من الفوضى، وبالتالى فبناء الكون لم يكن مصادفة، وإنما هو لحكمة ربانية [1]، جاءت فيها كافة السنن الإلهية الإطرادية.

إلا أن هذا النظام الكونى الإنضباطى لا يمنع أن ترتفع درجة الحرارة عن معدلها الطبيعى العادى فى مألوف الناس، لتقتل بعض الجراثيم الضارة، أو لتنضح بعض النباتات الهامة، بما يحقق المصلحة بين الناس، ويؤكد الدكتور غلاب:أن هذا يمثل" التدبير الإلهى؛ الذى انتهى إلى حد الكمال؛ وهو اقطع دليل، وانصع برهان على وجود الخالق العظيم جل علاه " [2].

وارى أن كل ما يجرى فى السنن الإلهية؛ إنما هو فى حكة إلهية، وياتى طبقا لحكمة إلهية؛ دالة على وجود رب البرية ووحدانيته وكمال علمه، وتمام إرادته، ونفاذ قدرته؛ فسبحانه من خالق عظيم، خلق كل شئ وقدره فأحسن تقديره.

(١) الأستاذ: وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص ٥٨، ترجمة ظفر الدين خان ط دار البحوث العلمية.
(٢) الدكتور: محمد غلاب – هذا هو الإسلام ص ٤٠ مطابع الشعب ١٩٥٩ م.

الفصل الثالث
الجوانب التطبيقية بين الحتمية والسنن الإلهية

تمهيد:

من سالف القول أن ما يتعلق بالحتمية على ناحية إجمالية؛ تم الالتفات إليه؛ باعتبار العرض والمناقشة، وما يتعلق بالسنن الإلهية قد جاء على ذات الناحية، لكن تبقى بعض الجوانب التطبيقية التى تكشف عن وجود علاقة بينهما، أو انعدام تلك العلاقة، والملاحظ أننا أمام مجموعتين من القضايا:-

المجموعة الأولى: الحتمية الدينية والسنن الإلهية المطردة.

المجموعة الثانية: الحتمية العقلية والسنن الإلهية الاستثنائية.

والتطبيق العملى طبقا لهذه القوانين العلمية يستلزم عرض الأمرين، أو المجموعتين فى هذا الإطار طبقا لما يلى:

أولا:المجموعة الأولى: الحتمية الدينية والسنن الإلهية المطردة:-

١-الحتمية الدينية باعتبار القوانين الكونية:-

لا مناط من القول بأن الحتمية الدينية هى التى وردت بها النصوص الشرعية، وتعبر عن قوانين كونية، وترتبط بأسباب ومسببات جارية فى السنن الإلهية [١] طبقا للقاعدة العامة الواردة فى قوله تعالى ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٢].

يقول الشيخ الصابونى:إن سنن الله لم تتغير، ولم تتبدل فى خلقه من ناحية الاضطرار [٣]، وبناء عليه تكون الحتمية الدينية مظهرا من مظاهر

(١) كحركة الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر، وبقاء الزوجية فى إطار الإعداد ككون السماوات سبعا وكون الآرضين سبعا.
(٢) سورة فاطر من الآية ٤٣.
(٣)الشيخ محمد على الصابونى – صفوة التفاسير ج ٣ ص ٥٣٢.

الأفعال الإلهية الجارية داخل إطار السنن الإلهية، وتخضع لها القوانين العلمية؛ حتى وأن كانت تلك المراجعات يعبر عنها بالقوانين الكونية فالسيادة للحتمية الدينية على القوانين العلمية.

فى ذات الوقت فإن الحتمية الدينية لا تخرج عن إطار السنن الإلهية، بل يمكن القول بأن صفة الحتم قائمة من عند الله جاءت، وعلى سنته اطردت، وقد نبه الدكتور الغمراوى إلى هذه المسألة أثناء حديثه عن نزول السماء والأرض على الأمر الإلهى فى قوله تعالى: " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [(١)].

إذ يقول الدكتور الغمراوى: إن نزول السماء والأرض على الأمر الإلهى؛ بالاستجابة طوعا لا كرها؛ فيه أشارة إلى تمام نفوذ سنن الله فيها [(٢)]، وفيه دليل على استجابة هذه الكائنات للأمر الإلهى من حيث أنها تسمع وتطيع، وبالتالى فموضوع الحتمية الإلهية يستغرق المظاهر المعبرة عن السنن الإلهية.

كما أن عملية التتابع والاستمرار داخل هذه السنن تؤكد القاعدة العامة، وهى تطابق السنن الإلهية الإطرادية مع الحتمية من الناحية الشرعية، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[(٣)].

ذكر الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر الغفارى (ﷺ) عنه قال: كنت مع رسول اللَّهِ (ﷺ) في الْمَسْجِدِ، حين وَجَبَتِ الشَّمْسُ فقال: " يا أَبَا ذَرٍّ تدري أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ ؟قلت الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حتى تَسْجُدَ بين يدي رَبِّهَا عز وجل، فَتَسْتَأْذِنَ في الرُّجُوعِ، فَيُؤْذَنَ لها، وَكَأَنَّهَا قد قِيلَ لها أرجعي من حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعَ إلى مَطْلَعِهَا، فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا " [(٤)].

وهذا المستقر الذى تجرى فيه الشمس فى عالم الدنيا، لا يختلف كثيرا عن القاعدة العامة من الناحية الحتمية، بل هو فيها ادخل، ويؤكد ذلك ما حكى عن قتادة أنه قال:إن مستقر الشمس وقت واحد لا تعدوه، أنها تجري إلى أبعد منازلها

(١) سورة فصلت الآية ١١.
(٢) راجع للدكتور محمد أحمد الغمراوى – الإسلام فى عصر العلم ص ٣٢٨.
(٣) سورة يس الآية ٣٨.
(٤) الإمام أحمد بن حنبل – مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٥٢ ح ١٣٩٠ ٢ط القاهرة مؤسسة قرطبة.

في الغروب، ثم ترجع ولا تجاوزه، ذلك تقدير العزيز العليم الذي وصفنا من جري الشمس لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز في انتقامه، العليم بمصالح خلقه؛ وغير ذلك من الأشياء كلها، بحيث لا يخفى عليه خافية [١].

ولا شك أن هذه الحتمية الاطرادية شرعية فى طبيعتها، دينية من ناحية نصوصها، واطرادها كقانون يستمد مصدره من الله تعالى، وهذا مما لا خفاء فيه، وارتباطه بالسنن الإلهية أمر تشهد له الوقائع الحياتية.

٢-باعتبار ما يتعلق بالأمثال فى عالمى الحيوان والنبات:-

تنطلق الحتمية الدينية كقانون مستمد، مصدره هو الله تعالى، وبالتالى فهو حتمية شرعية؛ وسنة إلهية، ومن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾[٣].

ومما لا شك فيه أن الأمثال التى تقع فيها الحتمية الدينية إطرادية فى الغالب الأعم؛ كسنة إلهية بحيث إذا اجتمع ماء الرجل، وماء المرآة فى موضع واحد يقبل التعامل مع ناتجهما تم الحمل طبقا للقاعدة العامة، ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾[٤]، وبناء عليه تصح عملية التطبيق بين الحتمية الدينية الشرعية وبين السنن الإلهية الإطرادية، أما إذا تم الحمل عن غير هذا الطريق فإنه يكون سنة، أو فعل إلهى إستثنائى كالحال مع خلق الله تعالى عيسى بن مريم من غير أب قال تعالى:(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾[٥].

---

(١) العلامة الطبرى: جامع البيان، ج٢٣/ص٦ دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥هـ.
(٢) سورة الروم الآية ٢٠.
(٣) سورة النساء من الآية ١.
(٤) سورة ا لشورى من الآية٤٩.
(٥) سورة النساء الآية ١٧١.

وهذا مما يؤكد أن قانون الإطراد العلمى له مقومات أساسية داخل النصوص الشرعية، وفى ذات الوقت يطرح فكرة الانصراف عن السنن الإلهية إلى غيرها، فقانون الإطراد العلمى قائل إن العلل المتشابهة تحدث عنها المعلولات المتشابهة وهو الاعتقاد الذى جعلنا نتأكد بأن ما حدث فى الماضى سيحدث مثله فى الحاضر إذا ما وجدت علته وهو الذى جعلنا نعتقد أن قطعة من حديد ستتمدد لا محالة إذا وضعت فى النار، وذلك بناء على قانون إطراد العلة ودورانها[١]، بما يترتب عليه من دوران المعلول فيها.

وهو فى ذات الوقت الذى أدى إلى الاعتقاد بأن الطبيعة تسير فى نظامها إلى غاية محددة لا تتعداها وأن طبيعة الشئ واحدة فى جميع أفراده وأن العلل المتشابهة تنتج على الدوام المعلولات المتشابهة، وأن العالم تجرى حوادثه على نظام واحد[٢]، طبقا لسنة إلهية قائمة فى العالم المشاهد.

وهذا يتفق تماما مع السنن الإلهية الاطراديه، وآية ذلك أن ما يتعلق بها يتم على جانب الوفاء، والفرق بين وجهة النظر الدينية وغيرها؛ هو أن وجهة النظر الدينية تقرر هذه الحقائق الموجودة فى نطاق العادة، بينما الحتمية العقلية تعرض وجود هذه المسائل على سبيل الجبر والإكراه، أو الاطراد العلى دون إرادة إلهية، ومن ثم كان فرض الحتمية الدينية راجحا ومشروعا، ورفض الحتمية العقلية أمر مقرر فى العقول الصحيحة، والقلوب المؤمنة.

يؤكد الشيخ الألوسى على أن هذا المعنى قائم فى كل أجزاء الكون، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: " يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ "[٣]، حيث نسب إلى الفضلاء القول بأن ذلك مما يجئ فى النظام الكونى، طبقا لسنة إلهية ثابتة [٤]، وهى ما نسميه السنة الإلهية الاطراديه.

وأيا ما كان الموقف فإن عملية المواءمة بين الحتمية الدينية، والسنن الإلهية مسألة مهمة جدا لمن تأملها، وأيقن حقيقة وجودها أما من خالف ذلك

(١) الدكتور: عوض الله حجازى المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم ص١٨٤.
(٢) الدكتور: على محمد جبر، منطق حديث، ص ٤٦، ٤٧.
(٣) سورة ا لحديد الآية٦.
(٤) العلامة محمود الألوسى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، ص٢٣، ص ٢٨٣، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت.

فأمره موكول إلى ربه لأن السنن الإلهية أفعال ربانية ترتبت فى موضوعاتها قبل أن يخلق الله الخلائق كلها فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ): " يقول كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وكان وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ"(١).

فى ذات الوقت فإن الملاحظ أن الذكر الحكيم فى حديثه عن النظام الكونى ترد كلمة جعل، وكلمة خلق، وكلمة قدر، وكلها داله على وقوع فعل من أفعال الله تعالى قبل أن يكون زمان، فارتباط الزمان به ارتباط متأخر، مما يؤكد أن السنة الإلهية ثابتة فى قضاء الله المكتوب منذ الأزل، أما الحتمية فيمكن فهمها على أنها تنفيذ ذلك من الناحية العملية، أو الواقعية، فالقضاء الالهى كتابة، والقدرة الالهى تنفيذ ما فى ذات الكتابة كل بوقته لا يتعداه.

ثانيا: الحتمية العقلية، والسنن الإلهية الاستثنائية:

من الواضح أن الحتمية العقلية لا تسمح بانفصال المعلول عن العلة مع أن السنن الاستثنائية تسمح بها، وبناء عليه صارت الرخص فى السنن الإلهية قاعدة، بينما الاستثناءات فى الحتمية العقلية حسبت على أنها مغالطة لمسائل رياضية، وهنا تأتى الكوارث العلمية، أما لماذا؟

فلأن الاعتقاد بجبرية الحتمية العقلية يلغى أى فكرة تطرح على قانون الاستثناء مع أنها ذاتها المتحدثة عن قانون الاستثناء، وبالتالى هى تهدم نفسها من حيث تريد إعلاء البناء، والأدلة على ذلك كثيرة، فمثلا الاستثناء فى العالم البيولوجى نشأت عنه الهندسة الوراثية من خلال عمليات التهجين الوراثى، فأين ذلك الدور الحتمى والعمليات البيولوجية تتم فى شكل اختياري كامل من قبل الذين يرون فى ذلك مصالح لهم، ومن ناحية الذين يقومون بها أيضا داخل المعامل البحتية (٢).

(١) الإمام مسلم: صحيح مسلم، ج٤، ص ٢٠٤٤، الحديث رقم ٢٦٥٣، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) العمليات القائمة فى الهندسة الوراثية تتم بالإختيار بين الأشخاص، الذين يقبلون أن يتم التجريب معهم العلمى،وفى ذات الوقت يقبلون أن تستمر العملية حتى المنتهى ولو أنهم رفضوا ما كان هناك معول عليه فأين الحتمية العقلية.

أضف إلى ما سبق أن الحتمية العقلية فى المجال التجريبى تخضع لإرادة المجرب نفسه، ولو كانت الحتمية العقلية غير قابلة لأى مجهود آخر، لكانت طبعا فيه، أو جبلة قائمة به، وهذا فى حد ذاته مما يناقض الحتمية العقلية، ويلزمها بقبول التعديل الدورى، حتى تساير المعطى الدلالى.

وإذا أردنا تقديم صورة عملية نجد ذلك من خلال فهم آيات القرآن الكريم، فالله –ﷻ– يقول عن نفسه:" فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"(١)، وذلك لا يتأتى إلا إذا كانت سننه هى القاضية على ما سواها، بغض النظر عن كونها الاطراديه، أو استثنائية، وبناء عليه انتفى، كما يقول الثعالبى" معنى الاختراع والإيجاد من العدم عما سوى الله جل علاه (٢).

فإذا أضفت إلى ما سبق المشاهدات التى تجرى على الجوانب التجريبية من الناحية السلوكية، أمكن القول بأن الحتمية العقلية ليست قاعدة أصلية مطلقة، وإنما تصلح أن تكون قاعدة نسبية، فتفتح الباب أمام السنن الإلهية النسبية، ليتم تحقيق المصالح المشتركة يدل على ذلك ما يلى:

أ – إن الناحية السيكولوجية تعطى الإنسان الواعى نوعا من تداعى الأفكار، وهذا من شأنه أن يجعل " كل فكرة هى نتيجة بالضرورة، أو معلولة لسابقتها، وهى فى ذات الوقت عامة للاحقتها " (٣)، وبناء عليه تكون الحتمية العقلية غير مطرده، والسنن الإلهية الاستثنائية هى السائدة.

ب– إن الكائن الحى الذى يمكن مشاهدته من الخارج ومقارنته بغيره، يمكن قياس الحركات الصادرة عنه، ثم التعبير عنها، ونقلها فى صور يمكن ضبطها من خلال قوانين رياضية "، وقد مكن ذلك من ظهور مدارس متعددة جعلت الحتمية العلمية ظاهرة أساسية وليس الحتمية العقلية (٤)، وهذا وجه واضح، وملحظ جميل.

---

(١) سورة ا لمؤمنون من الآية١٤.

(٢) راجع للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى – الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ج ٣ ص٩٣ مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت.

(٣) الدكتور فوزى راجح – القوانين العلمية وعلاقتها بالدراسات السيكولوجية ص ١٣١، والدكتور يمنى طريف الخولى – العلم والاعتراف بالحرية ص ٢١٠.

(٤) الدكتور مراد وهبه، الدكتور يوسف مراد – المذهب التكاملى ص ١١٨، ١١٩.

وبناء عليه تفتح الحتمية العلمية باب الاحتمال العلمى، وهو ذاك المعول عليه بالسنن الإلهية الاستثنائية، لأن قضايا العلم مهما كانت يقينية، فإن ما يتعلق بها يؤكد وجود جانب من النسبية ما يزال مرتبطا بها، والدليل عليه أن دراسة الخبرات " الشعورية البسيطة، كالإحساس، والإدراك، والمشاعر، والأفكار، إنما يتم ذلك داخل المعمل، وبناء عليه يتعين الوصول منها إلى قوانين السلوك النفسى العام [١].

ومما لا يخفى أثره أن عمليات التواصل القائمة بين الحتمية العقلية، والسنن الإلهية الاستثنائية تعبر عن طبيعة ثابتة فى السنن الإلهية، وقدرة العقل المسلم الواعى على الوصول بها إلى شاطئ الأمان العقدى والمعرفى، وهذا مما نبهت إليه الدراسات العلمية، القائمة على أصول شرعية.

ج – إن انطلاق السنن الإلهية الاستثنائية من نواح عملية تطبيقية لا يستهدف التقليل من العلم، ولكنه يفتح باب الاجتهاد المعرفى، ذلك أن العقل الإنسانى إذا عرف أن مجال البحث العلمى قد انتهى، فأنه ينكفئ على ذاته، ويعلن إفلاسه، وهو ما يترتب على الحتمية العقلية.

بينما السنن الإلهية الاستثنائية تعطى لذات العقل مساحة إضافية من البحث العلمى الهادف، بغية الوصول إلى نتائج جديدة، لتحقيق المصالح المشتركة، ومن ثم يكون التطبيق العملى لصالح السنن الإلهية الاستثنائية، وليس للحتمية العقلية [٢].

أضف إلى ما سبق أن السنن الإلهية الاستثنائية فى المنظور الشرعى، تمارس الضغط المتواصل على العقل، حتى يقدم كل ما لديه من بحث علمى هادف، فمثلا ظاهرتا الخسوف والكسوف ليستا اطراديه، وإنما هما من السنن الاستثنائية، وبالتالى فترقبهما ومحاوله التعرف عليهما قبل وقوعهما، بجانب عمليات الضبط المتواصلة لمواقعها وتأثيراتها، سمح للعقل بخوض غمار الفلك، بل بات علم الفلك علما مستقلا له أبحاثه العلمية، وموضوعاته المعرفية،

(١) الدكتور أحمد فائق – المدخل إلى علم النفس ص ٤٤٠.
(٢) الحتمية العقلية تفرض قيودا على العقل، ولذلك تحد من سلطانه مع دعواها أنها تعمل لصالحه،ولذا تكون الدعوى بعيده عن المقدمات،والنتائج منزوعة من أصول غير قائمة.

ونتائجه الإيجابية التى ساهمت فى تقدم البشرية [1]، ما دامت تقوم على جوانب بحثية مشروعة.

د- أظهر التطبيق العملى جملة من النتائج السلبية بالنسبة للحتمية العقلية، وبخاصة فى المجال البيولوجى، إذ قضت تلك الحتمية على أمال زوجين، قال العلم إنهما عقيمان، وبالتالى سقطا فى إطار من اليأس والإحباط.

بينما السنن الإلهية الاستثنائية فتحت الباب أمام كليهما، نظرا لليقين القائم فى الناحية الإيمانية، ومن هنا ظهرت عمليات التلقيح الصناعى، فتحققت نتائج لم تكن فى الحسبان، لولا أن من الله بها على هؤلاء وأولئك.

ويبدو لى أن الهندسة الوراثية، وعمليات البحث العلمى، يمكن أن تحقق العديد من النتائج الإيمانية، إذا سعت حثيثا للاستفادة من مقتضيات السنن الإلهية، بحيث أخذت جانب العلم، ثم قامت فيه بما ينبغى على طريق الإحداث النوعى، لأن هذا من شأنه التقدم خطوات أمنة فى كثير من المواقع الفكرية، بغض النظر عن طبيعتها، والمعوقات التى قد ترتبط بها [2].

هـ – تعتبر عمليات التنظير والمقارنة بين الحتمية الدينية، والحتمية العقلية، غير مقبولة من الناحية الواقعية، اللهم إلا أن يراد إخضاع العقلية المتطرفة إلى أحضان الدينية المتكاملة على أساس أن كل بحث علمى له قواعد معرفية، ومبادئ وأصول يجرى فيها، ولا ينفصل عنها، فإذا تم توظيف ذلك على ناحية دقيقة، تحققت جملة من النتائج الإيجابية [3].

ولا يغرب عن زى بال أن كل قضية جديدة يمكن طرحها فى الميدان العلمى، إذا تم بحثها، والوقوف على أصولها من الناحية الشرعية كان ذلك أمرا متاحا، تشهد به الوقائع العملية، ويحقق فى ذات الوقت النتائج الامتيازية.

---

(١) يعتبر علم الفلك من العلوم التى تأتى فيها الحتمية العقلية عاجزة تماما عن إصدار أحكام كلية نظرا لعدم خضوع علم الفلك إلى التجريب العملى عليه، راجع الدكتور: منصور أبو زيد –العلم ومشكلاته، ص ١٤٣، طبعة ثانية ١٩٨٥م

(٢) المعوقات العلمية تبدوا متعددة، ولكن الأهم هو أن تكون هناك خطوات منظمة تنظيما وثيقا قائما على تحقيق مصالح البشرية مستهديا بالنصوص الشرعية،معتمدا على غاية أساسية،وهى عملية الاستخلاف فى الأرض على الوجه المنشود.

(٣) راجع الدكتور: نصر الدين محمد الطمبولى، الأسس العلمية والقواعد المعرفية، ص ١٢٥، ١٢٦ طبعة أولى ١٩٨٣م.

بدليل أن مفكرى المسلمين الأوائل انشأو علوما غطت مظاهرها سحابات العالم الفكرى، ونقلت الإنسانية من مرحلة العصور الوسطى إلى النهضة العلمية الحديثة، وكان المفكرون المسلمون هم القواعد العقلية المنطلقة، لتحقيق تلك الأهداف على أرض الواقع، وتوظيفها توظيفا رائعا [1] اعترف به المنصفون من مفكرى الغرب قبل أبناء الشرق.

كما أن الدراسات العلمية فى الوقت الحاضر، قد نبهت إلى أن التقدم العلمى كان وليد البحث المعرفى الذى قاده المفكرون المسلمون الأوائل، طبقا لما أمرت به النصوص الشرعية، وأنهم تعايشوا مع الوقائع فى صورها المثالية، وقدموا على الدوام ما يدفع العالم المتحضر للإمام، فكانوا بحق أصحاب علم وتجربة، كما كانوا رجال فهم، ومعرفة [2]، وقد وضعوا ذلك كله فى خدمة دين الله رب العالمين.

وتبقى عملية المقارنة قائمة، لكل من يريد التقدم خطوة نحو البحث العلمى، فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ويخطئ كثيرا من يعتقد أنه بلغ الغاية، ومن الصواب القول: بأن كل إنسان يقدم فى ميدان البحث العلمى ما تتمكن منه ملكاته، ويعينه الله على القيام به، إما أن يغامر، فيدلى بغير ذلك، فلا أعتقد إلا أنه قد خالف القواعد العامة.

(١) راجع لشاخت بوزوروث – تراث الإسلام ج ٢ ص ٢٨٣ ط سلسلة عالم المعرفة.
(٢) راجع الدكتور صبرى عبد العظيم زكريا – الإنسانية فى تاريخها العلمى ج ٢ ص١٤٣،وراجع المؤلفات التى تحدثت عن فكر كل من الفارابى وابن سينا،وابن رشد، وابن باجه وابن طفيل وغيرهم ترى أثارهم الفكرية على العالم ما تزال بادية.

الخاتمة

تعتبر الخاتمة تطويقا لكل ما يتعلق بالبحث من نتائج، بجانب أنها الركائز الأساسية التى يمكن الوقوف عليها من ناحية النتائج البحثية، بجانب جملة الاقتراحات العلمية، أو التصنيفات، والتوصيات الاستهدائية التى تفيد البحث من النواحى العملية حتى يبلغ الدرجة التكاملية، وبناء عليه فإنى أقدم ما يلى:

أ – أهم النتائج:

من الملاحظ أن النتائج متعددة، بعضها يقع فى الإطار التوظيفى، وبعضها ينتمى إلى جوانب العرض، ثم ياتى بعض ثالث يمكن قيامه على المناقشة، غير أنى سأجمل تلك النتائج فيما يلى:

١ – أن الأفعال الإلهية مرتبطة بالقضاء والقدر على أساس أن القضاء كتابه، وهو ما دون فى علم الله الازلى بينما القدر تنفيذ ذلك كل بوقته، وذلك يعطى البحث العلمى دفعة قوية، بحيث يسعى إلى التعرف على الغيبيات العلمية، كما يمنح الباحث المعرفى ثقة من حيث أنه ينشد الوصول إلى النتائج الصحيحة.

٢ – إن الحتمية العلمية تعطى متسعا لدائرة البحث العلمى، من حيث أنها تعترف بالاستثناء وذلك مما يشكل العقلية الباحثة تشكيلا يفتح الأفاق العلمية أمامها ويمهد لظهور بدائل جديدة فى الإطار البحثى تستهدف الجوانب المختلفة، وذلك من شأنه الحث على خوض الغمار المعرفى من خلال مواقع أمنة.

٣– إن السنن الإلهية الاطراديه ضابطه، فيما لا يحتاج إلى تغيير، وبنا عليه يبقى عملها فى هذا الإطار محافظا على النظام العام، ويكشف فى ذات الوقت عن بعض مظاهر القدرة الإلهية، كما يعتمد فى التعرف على العلم الإلهى، وتلك غاية محمودة، وعمل مشروع.

٤– أن الحتمية الشرعية تعطى للفرد الواعى مساحة من التأمل فى نفسه أولا، وفى الكائنات المحيطة به ثانيا، وهو ما يدفع للتوسع المعرفى الأفقي والرأسي، وينهض بالإنسان بعيدا عن السقوط فى دائرة الانفلات البحثى تحت اسم العلم، أو الوقوع فى كبوات التواكل.

٥– أن السنن الإلهية الاستثنائية لها ميزان علمى يجئ فى صور ومظاهر تعبدية، أو تعقلية، وذلك من شأنه دعم الواقع المعرفى، والتأكيد على قاعدة الإيمان، وصياغة جوانبها من الناحية العقدية صياغة تتسم بالقوة بجانب القدرة

على مقابلة الأحداث دون خوف منها، أو قصور عنها على أساس أن كل سنة إلهية مطردة ارتبطت بها مصالح متعددة، فالكون ملك لله ومنظومته تسرى على وتيرة تنفيذية لما قضاه جل علاه، فالعلم صفته أخرى ، والحكمة والإرادة والقدرة كلها من جملة ما له –ﷻ–من الجلال والجمال والكمال والإكرام، وهذا ما يقدم النموذج الأمثل للإنسان الواعى، بحيث يخوض غمار الحياة فى ثقة واقتدار.

٦– أن الإلحاد العلمى قام على نفى فكرة المعقولية بالنسبة للسنن الاستثنائية، وفى ذات الوقت يفتح الباب واسعا أمام القضايا البينوية، التى يسرف فى عرضها، دون أن تقوم لديه أدله بشأنها، ومن هنا كثر الملحدون من الذين يطالبون برفع راية العلم، حتى إن أدى ذلك إلى ممارسة العديد من الضغوط على الأصول الإيمانية، بل وإنكارها إجمالا وتفصيلا.

ب– أهم التوصيات

تعتبر التوصيات فى أى بحث علمى، بمثابة الإشارات الضوئية التى تنبه المار على الطريق، مما قد يلاقية من أخطار، إن هو غفل عنها، وبناءا عليه تكون التوصيات ذات أهمية كبرى فى مجال البحث العلمى ، ومن أبرزها فى هذا البحث ما يلى.

١– أن يتم تكليف العديد من الباحثين المتخصصين فى دراسة تلك الموضوعات، وبيان علاقتها بالشريعة الإلهية، حتى لا يبقى كل منها فى طرف ينازع الأخر فى المساحة المشتركة، مع أن العلم الصحيح لا يناقض النصوص الدينية السليمة، فالدين يدعو للعلم ولا ينازعه.

٢– حاجة الإنسان الواعى المسلم فى الوقوف على القضايا العلمية بلغتها العلمية، ثم التعامل معها من خلال ذات المفردات الاصطلاحية ذات التركيبية الإنمائية.

٣– تبنى تلك القضايا العلمية، وعمل مقارنة بينها من الناحية الاستهدافية، مع بيان ما ترمى إليه النصوص الشرعية، حتى لا يظل أدعياء العلم بعيدين عن منظومة الإيمان، أو يجعلوا أصحاب المنطوق الإيمانى بعيدا عن المجال العلمى، إذ لابد لكل منهما أن يلقح الأخر، ويتعامل معه، ويقدم وجهة نظره على ناحية تطبيقية.

٤- إن الأفكار التى ترد للعقل البشرى، إذا كانت من معطيات عالم الغيب، فيجب أن يكون وقوفه عندها متوازنا بحيث يدرك القضايا التى تطرح عليه من عالم الشهادة، حينئذ فلا يكون لديه مانع من قبوله التجربة العملية، والتحرك فى إطارها، دون أن يعتقد صحتها المطلقة، وإنما يضع فى حسبانه القاعدة العامة، وهى أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

٥- ضرورة التحلى بملكة الصبر، ونبذ الضيق، والتخلى عن الكبر والتعالى، حتى يكون الجميع أخوة متحابين بدل أن يكونوا أعداء متحاربين، والمعروف أن قضايا العلم الصحيح تقرب، وأصول الدين السليمة تدفع إلى هذا التقارب، وبناء عليه فكل قضية بحثية علمية لها مردود إيجابى من الناحية العملية.

٦- إن قشور العلم تضل، وأن عملية السباحة فى الميدان المعرفى دون أن يكون القائم بها متمكنا منها، تمثل عدوانا على العلم الذى ينتمى إليه هذا الشخص أو ذاك، والعلم قاعدته المعرفة، وغايته الاستفادة بالنتائج، طبقا للأهداف المشروعة، وما ذلك على الله بعزيز.

ج – أبرز المقترحات:

تعتبر المقترحات بمثابة رؤوس موضوعات بحثية تكون بحاجة إلى المزيد من الدراسة، على أساس أنها تصادف الباحث العلمى أثناء بحثه، وتحث على القيام بها، واستكمال أوجه نفعها، ومن هذه المقترحات ما يلى:

١- الحتمية الدينية من خلال النصوص الشرعية.
٢- السنن الإلهية بين الواقع العلمى، والنص الدينى.
٣- دور السنن الاستثنائية فى تقدم البحث العلمى.
٤- قضية الانتحال العلمى بين المنظور المعرفى والتطبيق العملى.
٥- علاقة الحتمية العلمية بالسنن الإلهية الاطراديه.
٦- فكرة الانسجام والاطراد داخل الإطار الحتمى دراسة مقارنة.

ولا يخفى أن هذه المقترحات لا تخرج عن كونها رؤى معرفية، قد ينظر إليها الباحث العلمى نظرة استحسان فيقبل عليها، ويسعى للاستفادة منها، وقد ينظر إليها نظرة استهجان فيلقيها بعيدا، كما ينحيها جانبا فهذا شأنه.

أما أنا فما زلت طوافة بين لجج الأفكار أقابلها كفاحا بين صفحات الماء، معتصمة بقول الله تعالى: "إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (١).

(١) سورة هود من الآية ٨٨.

ثبت بأهم المصادر و المراجع

***** أولا: القرآن الكريم وعلومه:**

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير البيضاوى، البيضاوى (العلامة عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي) –ط: دار الفكر – بيروت.

٣- تفسير المنار – رضا الشيخ محمد رشيد–الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.

٤- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب– الرازى الأمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي –طبعة دار الغد العربى ١٩٩٢م، و ط دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٠م، ط أولى.

٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبرى العلامة محمد بن جرير بن يزيد بن خالد أبو جعفر، – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥هـ.

٦- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن– الثعاليبى العلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف –مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت.

٧- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، الألوسى العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي – طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكانى العلامة محمد بن علي بن محمد –، ط دار الفكر – بيروت.

٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – الزمخشرى الإمام أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي–، ط دار إحياء التراث العربى ٢٠٠١م.

١٠ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – عبد الباقى، أ: محمد فؤاد–.دار الكتب المصرية ط ١٩٤٥ م.

***** ثانيا: السنة النبوية المطهرة وعلومها:**

١١- الجامع الصحيح المختصر صحيح البخاري: البخارى الإمام، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، – دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت – ١٤٠٧ – ١٩٨٧، ط الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

١٢ – السنن الكبرى: النسائى الإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن – – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١ – ١٩٩١، ط أولى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري.
١٣ – صحيح مسلم: مسلم الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري–، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
١٤ – المستدرك على الصحيحين: النيسابوري، الإمام محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم – دار الكتب العلمية بيروت – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ط أولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
١٥ – مسند الإمام أحمد: ابن حنبل الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني– ط القاهرة مؤسسة قرطبة.
ثالثا: المعاجم وكتب الرجال:
١٦– التعريفات: الجرجانى– السيد الشريف علي بن محمد بن علي –، – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٥، ط أولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
١٧ – التوقيف على مهمات التعاريف: المناوي –العلامة محمد عبد الرؤوف – دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق – ١٤١٠، ط أولى، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.
١٨– القاموس المحيط: الفيروزآبادي–العلامة محمد بن يعقوب – ط مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.
١٩ – لسان العرب: ابن منظور – محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري– دار صادر ط أولى.
٢٠ – مختار الصحاح: الرازي – العلامة محمد بن أبي بكر بن عبد القادر – ط – بيروت – ١٤١٥ – ١٩٩٥، تحقيق: محمود خاطر.
٢١ – المعجم الفلسفى: وهبه د مراد – ط دار الكتاب اللبنانى بيروت.
٢٢ – المعجم الكبير: الطبرانى –الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم – مكتبة الزهراء – الموصل – ١٤٠٤ – ١٩٨٣ط ثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
٢٣ – المعجم الوسيط: مصطفى الأستاذ إبراهيم وأخرين– دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٢٤ – معجم مقاييس اللغة: ا بن فارس –العلامة أبي الحسين أحمد بن زكريا – .، تحقيق شهاب الدين ط دار الفكر.

*** **رابعا:- المصادر العامة:**

٢٥ – آدم خلافته وفلسفة تقويمه: الخولى الأستاذ البهى–ط القاهرة ١٩٦٣ م.

٢٦ – الأسس العلمية والقواعد المعرفية: الطمبولى د: نصر الدين محمد، ، طبعة أولى ١٩٨٣م.

٢٧ – الإسلام يتحدى: خان أ: وحيد الدين– ترجمة ظفر الدين خان ط دار البحوث العلمية.

٢٨ – الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام: القرطبى الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر–تحقيق د أحمد حجازى السقا ط دار التراث.

٢٩ – الإيمان من منظور باحث جيولوجى: بلانت انطوان –ترجمة وفاء صابر ١٩٦٥ م.

٣٠ – البحث العلمى والمناهج الرياضية: بيير (أنطوان)، ترجمة هدى عبد الباقى ١٩٩٣م.

٣١ – بعض مظاهر التقدم فى العلوم البيلوجية: الفولى د محمد مصطفى ط دار المعارف ١٩٦٣ م.

٣٢ – البيولوجيا والفيزيا والإنسان، دراسة ثلاثية الأبعاد: فيرباخ: جورج، ، ترجمة عادل فوزى، طبعة أولى، ١٩٨٥م.

٣٣ – تراث الإسلام: بوزوروث شاخت –ط سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨م.

٣٤ – تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات: ابن سينا – الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي، ومعها رسالة حى بن يقظان طبعة بيروت.

٣٥ – تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: البروسوى العلامة الشيخ إسماعيل حقى –، تحقيق الشيخ محمد على الصابونى، طبعة دار الصابونى الأولى، ١٩٨٨م.

٣٦ – تهافت الفلاسفة: الغزالى الإمام محمد–تحقيق د سليمان دنيا –دار المعارف ط الثامنة، –

٣٧ – تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ، تحقيق ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية ط أولى.
٣٨ – الحتمية والقوانين العلمية: صابر د: فوزى محمد –، طبعة أولى ,١٩٨٣
٣٩ – خوارق العادات بين الدين والفلسفة: أبو الوفى الشيخ عبد البديع محمود–ط أولى ١٩٤٣.
٤٠ – الطبيعة الفيزيائية: فوكر جورج ، ترجمة وفاء صابر، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.
٤١ – العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية: الخولى دكتورة يمنى طريف – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ م
٤٢ – العلم والفلسفة وجها لوجه: فيدر جورج، ترجمة وفاء فوزى، طبعة بيروت، ١٩٩٣م، المنطق الرياضى والدلالات العلمية، ترجمة: أمل المراكبى، طبعة بيروت ١٩٨١م،
٤٣ – العلم ومشكلاته: أبو زيد د: منصور –، طبعة ثانية ١٩٨٥م.
٤٤ – العلوم الفيزيائية وقوانينها العلمية: فوزى د: صابر عبد المقصود – ٢٥، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
٤٥ – فلسفة العلوم ومناهج البحث: مهران د: محمد، د: حسن عبد الحميد، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس ١٩٧٨م.
٤٦ – الفلسفة اليونانية: طه الشيخ محمود عوض الله–ط أولى ١٩٤١م،
٤٧ – فلسفة كار ل بوبر منهج العلم ومنطق العلم: الخولى دكتورة يمنى طريف– ط أولى.
٤٨ – الفيلسوف والعلم: كيمنى جون – ترجمة د أمينة الشريف المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٥ م.
٤٩– القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة: بوكاى موريس –ط ثانية ٢٠٠٤ م مكتبة مدبولى، وط المكتب الاسلامى ط الثالثه ١٩٩٠ ترجمة الشيخ حسن خالد
٥٠ – القوانين العلمية والفلسفة المعرفية: صالح: عبد الصمد محمود، ، طبعة أولى، ١٩٨٤م.

٥١ – الكون والتوحيد فى المنظار الإلهى: مطهرى الأستاذ: مرتضى، ، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقانى، دار الأمير، لبنان ١٤١٣هـ.
٥٢ –الله يتجلى فى عصر العلم: موريسون (كريسى)واخرين مقال جورج هربرت بلونت –تحت عنوان منطق الإيمان ترجمة الدكتور الدمرداش عبد الحميد سرحان، محمود صالح الفلكى ط إحياء دار الكتب العربية – عيسى الحلبى.
٥٣ –مقال فى فلسفة العلم والحتمية، بوست أندريه ، ترجمة فوزى صابر، بيروت لبنان ١٩٩١م.
٥٤ – المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: الغزالى الإمام محمد – ط مكتبة الجندى بالقاهرة، وط الجفان والجابي – قبرص – ١٩٨٧، الأولى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي.
٥٥– من أنوار السنة: الدمنهورى الشيخ: محمد منصور، ، ط الدار القومية، ١٩٢٥م.
٥٦– مناهج البحث العلمى: عبد العظيم. د: محمود فوزى –، طبعة أولى ١٩٨٣م.
٥٧ – مناهج البحث العلمى، فاضل د: زكريا ، طبعة أولى ١٩٨٣م.
٥٨ – المنطق الحديث ومناهج البحث، قاسم د: محمود، الطبعة الخامسة، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م.
٥٩– المنطق ومناهج البحث: جبر د: على محمد –، ط المطبعة الفنية، ١٩٦٣.
٦٠ – الموافقات فى أصول الشريعة: الشاطبى العلامة إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي –تحقيق الشيخ عبد الله دراز ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٦،
٦١ – موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين: صبرى الشيخ: مصطفى –مكتبة الإمام بالقاهرة ١٩٩٠ م.
٦٢ – النسبية النظرية الخاصة والعامة: اينشتاين ألبرت –ترجمة د رمسيس شحاته –الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م.
٦٣ – نشأة الفلسفة العلمية، هانز ريشنباخ–، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٧٩ م.
٦٤ – نظرات فى آيات الله: المرعشى الشيخ: محمد بن ناصر الدين، ، طبعة أولى ١٩٢٨م.

٦٥ – نظرات فى سورة الأنبياء: المكلاوى الشيخ: محمد بن على –، طبعة أولى ١٩٢٧م.
٦٦– نظرات فى كتاب الله: أبو الروس الشيخ محسن سالم–ط أولى ١٩٢٤ م.
٦٧ – هذا خلق الله: الجوهرى الأستاذ حامد – ط الأولى ١٩٩٣ م.
٦٨ – هذا هو الإسلام: غلاب د محمد – مطابع الشعب ١٩٥٩ م.